الطبعة الأولى
1

إلى مانيسا ، إلى الحب

أفكاري ، لطالما حلمتُ بك

ليه نفسي وكل الأمور التي

اري ، رسالة لربما تشر

ل الذي مهَّد الطريق لغير

أستطع الفرار ، وبقيت تح

غ من بينها ، أي لو أن

اتحرك خلاله نتج من

إلى مانيسا

يمنى حسني

إلى مانيسا

(تخلا)، لم أخطئ في كتابة الكلمة ، ولكني أردت أن لا أُحني ألفها

لربما عندما تفعلها تلقي بالأشياءِ على امتداد يدك

ولا تلقها متأسفًا تحت قدمك لأنك قد تتعثر بها مره أخرى

تخلا ولا تطأ رأسك نادمًا على ما تركت ، تعلم كيفية الإفلات ،

والابتعاد والإنهاءِ ، تعلم كيفية التضحية بالأشياءِ السيئة،

إذا لم تقاتل من أجلك فلأجل مَن ترفع سيفك عاليًا ؟!

الكاتبة: يمنى حسني

حاصلة على بكالوريوس الهندسة كلية شبين الكوم

لها رواية زمردة صدرت عن دار عصير الكتب

Scan me

حواديت للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف:أحمد فهمي

إلى مانيسا

الكاتبة :يمنى حسنى
غلاف : أحمد فهمي
تنسيق : أحمد عوض الله فخري
مدير التوزيع : عبد الله عبد العزيز
رقم الإيداع : 2018/21162
الترقيم الدولي : 978-977-6674-03-5

العنوان : المنوفية
جنزور - بركة السبع

حواديت للنشر والتوزيع : FACEBOOK
haawadet@gmail.com
مدير النشر : محمود عمر
01091569716

جميع الحقوق محفوظة للناشر
ولا يجوز بأي صورة نشر، أو اقتباس، أو إعادة طبع، أى جزء من الكتاب ، أو اختزان مادته بطريقة الإسترجاع، أو نقله على أى نحو كان، أو بأي طريقة سواء إلكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر .

إلى مانيسا

رواية

الكاتبة

يمنى حسنى

الطبعة الأولي يناير ٢٠١٩

إهداء

عندما كنت صغيرة كنت أشم رائحة طيبة،
أسميتها رائحة من الجنة وعندما كبرت علمت
أنها رائحة أمي

إلى أمي

صوت ضحكاتها يتعالى وهي تدور تمسك بأناملها أطراف يده لتجعل جمعة يدهما مركز تدور من حوله، وتغلق عيناها عن الدنيا لما تدور حتى إذا تلاقا وجهيهما تنظر إليه بهما، ظل ثابتًا وانفلتت من يده وهي تدور وتزيد من ضحكاتها، فيشير لها بيده أن تقترب فلا تبالي وكأنها لا تشعر أنها تقترب من الحافة.

ناداها:

- ليلى احذري، أَغمضت عيناها السودتان وكأنها لا تسمعه وزاد اقترابها من حافة التل،انطلق خلفها كان يضحك وقلبه يرتجف

- ليلى احذري، ابتعدي عن الحافة ـ زادت سرعة خطواته نحوها ـ

- ليلى ابتعدي عن الحافة ـ لكنها لم تكن تسمعه ـ رجل أمسك به عنها، فأفلتت قدمها عن الحافة وعند سقوطها أدركت أنها تهوى، سقطت وهي تنادي مهاب... تَستغيثه.

ثم فتح عينيه، حلم يُرَاودُه، اتجهتُ إليه وسألته

- من كان الرجل الذي يمسك بك؟

أغمض عينيه وربَّت على كتفي وتركني وانطلق خارج خيمته.

الجميع تراوده أحلام.....ولكن أن يراودك حلم واحد، فهو ليس بحلم، إنه الحقيقة التي تعتقدها .

أنا مقاتل، كنت أقاتل من أجل العالم، خلوتي بذاتي كشفت لي أن أهم وأقوى معركة بل وأشدها أهمية أن تقاتل من أجل ذاتك.

يحيى النوردي

(إلى مانيسا، إلى الحب، فأنتِ الفيصل الواضح والحد الواقعي لكل الأمور المؤولة، أنتِ تطور أفكاري، لطالما حلمتُ بك في كل أحلامي، أريد أن أُرسل إليكي وأحكي لكِ عن كل ما آلت إليه نفسي وكل الأمور التي امتنعتُ عن تفسيرها لأي شخص سواكِ، لأنكِ الشيء المنتقى في خاطري، رسالة لربما تشرق الشمس مرة أخرى على هذا البرزخ الضيق، المظلم، كان التاريخ الأول الذي مهَّد الطريق لغيره من التواريخ لأؤرخها، العاشر من آذار انهارت البناية على رأسي، لم أستطع الفرار، وبقيت تحت الأتربة، الصخور من حولي في كل الاتجاهات وأنا أشغل الفراغ من بينها، أي لو أن كل الصخور متشابة لما تَجمع هذا الفراغ الذي يضمني، الفراغ الذي أتحرك خلاله نتج من اختلافات الحجارة، بعض الاختلافات والخلافات تخلق لنا هذا الحيز الذي نحيا بداخله، وترسم لنا الإطار الذي لا يجب أن نخرج منه، هذا اليوم أشار إلى مساري الذي كنت أجهله، كنتُ خائفًا، وأسمع صوت والدي ينادي عليَّ (يحيى.... يحيى)

فاطمئن لأن صوته يلامس مسمعي، موجات يقودها الهواء إلي تطمئنني، تدل أنه ما زال أحد يبحث عني، و لم يستسلم الجميع أمام موتي، بعض الأشياء التي قد نظن أن لا قيمة لها هي ثقل إذا قيست بمكيال، حادثةٌ حدثت بعد عشرة أعوام من مولدي، بعد خروجي رويتُ ما حدث بكل دقة فأطلقوا عليَّ الراوي يحيى.

*****

أنا يحيى إبراهيم صالح النوردي، قائد في أقوى الجيوش، وراوي يروي المعارك، رمحي صُنع يدي، نصله حاد، مميز، علامة لتواجدي، تعلمتُ صنعه ببرادوخ ـمدينة صُنع الأسلحة بإيراب ـ والبيضاء جوادي الذي صاحبني في كل معركة أخوضها، أُهديت إياه حين أتممت دروس القتال وحملتُ سيفي في الثانية عشر، الآن أعيش بعالمين موازيين، دفنتُ ومازلتُ أحيا، دُفنتُ ولكني أرى وأسمع دون أن أتحدث، رباه ما هذا البرزج الذي يأوينى .

ما يوصلني بالحياة سوى صربلاء تخاطبني وتشرح لي، صربلاء هي خيط أخير يربطني بالحياة بالرغم أنكِ بها. وتمسكي بالحياة جائز لأنكِ بها، وأنا ذاك المحب الشغوف بحبه وقد فاتني ببرزخي حسن لقائكِ، تتمتم الأشياء فقدي وتبكي رحيلي وأغلب ظني أنَّ أنكِ بموتي غير مبالية، وكيف تبالي بالذي كسر عهدًا ولم يرعى وردًا سقيناه بالأمس فتفتح، أنا ذاك الغريب الذي أنتظر حلمًا ولما أتى رحل.

*****

يجدر بي أن أذكر لكِ مهاب قبل أن أذكرني، وأحكي عنه قبلي، مكر بي إذ قتلني أو تسبب بموتي، خير صديق شر قاضي حين حاكمني، محاكمة بُنيت على النواقض والشائعات، سهمي الذي استدل به خيانتي لم ترمي به يدي، وها هو حاكمني بباطل ادعاه في نفسه، و أصدر حُكمه متفردًا دون علمي.

اليوم الرابع والعشرين من أيلول، لم يمضِ بضع شهور على موتي، وما إن هدأت نفسي كتبتُ رسالة إلى مهاب، الرسالة التي بعثتها تحملها صربلاء لم يفهمها مهاب مع أنها كلمة واحدة (تخلا) قصدت عدم الإطالة في رسالتي حتى أُحصِر له المعنى الذي أريد إيصاله، خِفْتُ أن تمر عيناه على الكلمة التي أريدها ويشتغل بما حولها، فتاه بها.

فبعثتُ برسالة أخرى تحملها صربلاء توضح رسالتي الأولى :

(تخلا، لم أخطئ في كتابة الكلمة، ولكني أردت أن لا أُحني ألفها لربما عندما تفعلها تلقي بالأشياء على امتداد يدك ولا تُلقها متأسفًا تحت قدمك؛ لأنك قد تتعثر بها مرة أخرى، تخلا ولا تطأ رأسك نادمًا على ما تركت، تعلم كيفية الإفلات والابتعاد والإنهاء، تعلم كيفية التضحية بالأشياء السيئة، إذا لم تقاتل من أجلك فلأجل مَن ترفع سيفك عاليًا؟! أليست السيوف تُرفع لحصد منايا نفسًا أبت أن نستظل بظل غصن شجره وسط الخلاء، وأنا ما رفعتُ سيفي يومًا إلا لعدوًا استبق لي وبات غمده فارغ)

اليوم الرابع والعشرين من أيلول، لم يمضِ بضع شهور على موتي، وما إن هدأت نفسي كتبتُ رسالة إلى مهاب، الرسالة التي بعثتها تحملها صربلاء لم يفهمها مهاب مع أنها كلمة واحدة (تخلا) قصدت عدم الإطالة في رسالتي حتى أُحصِر له المعنى الذي أريد إيصاله، خِفْتُ أن تمر عيناه على الكلمة التي أريدها ويشتغل بما حولها، فتاه بها.

فبعثتُ برسالة أخرى تحملها صربلاء توضح رسالتي الأولى :

(تخلا، لم أخطئ في كتابة الكلمة، ولكني أردت أن لا أُحني ألفها لربما عندما تفعلها تلقي بالأشياء على امتداد يدك ولا تُلقها متأسفًا تحت قدمك؛ لأنك قد تتعثر بها مرة أخرى، تخلا ولا تطأ رأسك نادمًا على ما تركت، تعلم كيفية الإفلات والابتعاد والإنهاء، تعلم كيفية التضحية بالأشياء السيئة، إذا لم تقاتل من أجلك فلأجل مَن ترفع سيفك عاليًا؟! أليست السيوف تُرفع لحصد منايا نفسًا أبت أن نستظل بظل غصن شجره وسط الخلاء، وأنا ما رفعتُ سيفي يومًا إلا لعدوًا استبق لي وبات غمده فارغ)

مهاب قائدي وقائد جيوش مملكة إيراب، ليثٌ جواده، سيفه صُنع برادغ وهي القرية الأقوى في صناعة الأسلحة، السيوف قوابضها قوية، نصولها من الزهر البرادغي أقوى زهر في إيراب، وجد شريدًا، جائعًا، عاريًا، علامة بيده اليسرى دائرة سوداء بداخلها نقطة بيضاء، الشائعات لم تنطفئ حتى وإن قتل العجوز الأشقر، العجوز الذي جاوز السبعين، قتله قائد الجناح الأيمن بالجيش أبي القائد النوردي، ولأن الوضع كان محتدم في القتال ولا مجال للفتنة، ذكر القائد أن العجوز ساحرًا، وبسبب وثوقهم بالنوردي، وأي ثقة هذه مُنِحت دون تفكير؟! فلم يتساءل أحد هل قُتِل الأشقر حين نوه عن العلامة الموجودة بيد مهاب اليسري؟! وتسائل لمن ينتمي مهاب؟! واقترح الأشقر في نهاية تساؤلاته أن قتل مهاب واجب لنجاة إيراب من أن تحل لعنة بها، مستند إلى شق ورقة منزوعة من صحيفة (إذا وجدت هذا الطفل المنوه عن أوصافه، اقتله، سنهلك) وبالرغم أنني ولدت بعد مقتل الأشقر بعام إلا أن الشائعات وصلتني؛ لأن القائد أخمد النار فانطفأت وما زال قلبها مشتعل.

كل ما له بداية لا ينتهي إلا إذا أوصلت بداية الخيط بنهايته؛ حتى لا يشتبك أحد الأطراف مع خيط آخر وينسج منها الحكايات، ولكي لا تتشابك الأطراف ببعضها عليك فهم من أين ابتدء الخيط؟ وأين انتهي؟ أي معرفة الدوافع لارتكاب أمر ما و لماذا عليه أن ينتهي، أي أن تواجه نفسك وتسألها، ولأن الأشياء إذا ما ابتدت لا تنتهي إلا إذا أُنهيت بشكل يليق بك، بشكل يريحك، بشكل مقنع بالنسبة لك، أو امتدت معك إلى الأبد.

*****

حروبنا ضد الأشراس كانت قوية، طاحنة، تعلمنا أن الأشراس كانوا نوعًا من السلالات المختلطة، لم يكونوا بشريون تمامًا، وربما مطلقًا، ولكنكِ لا تستطيعين أن تميزي شرسي عن بشري حين تنظري إلى منكبيه دون رؤية وجهه، يمتلكون هيئاتنا، أطوالهم مماثلة لأطوالنا، ولكن ملامحهم تشذ عنَّا، استطاعوا الاستيطان في الأرض، أكبر قلاعهم وأشدهم قوة القلعة السوداء.

القلعة السوداء، أربع أسوار تحيط بها، أسوار لا أبواب لها، من أين أتوا؟ وكيف وجدوا؟ تعلمنا أن نصيب كل غريب لا يلتفت إلينا حين ننذره ونحن بالأراضي الغير مؤمنة، وتعلمنا أننا نلتفت إلى بعضنا بعضًا بمجرد أن نلْتقي.

المعارك دامت مئات الأعوام وهدمت الممالك واحتمى الناجون بحصون إيراب، وظلت إيراب وعدة ممالك أخرى بمواطئ مختلفة من الأرض.

*****

الأمور التي لا تصغين لها يا مانيسا، الأحداث الصغيرة التي تمر دون أن تعي تفاصيلها قد ينتج عنها أحداث كبيرة تُلْزِمُكي أن تقفي أمامها تلزمكِ كل التفاصيل التي غَضَّتِ طرف النظر عنها، كنتُ أعلم أن بداية الأمر كان يكمن في تلك الحادثة الصغيرة التي لم تولها أم القاضي القدر الأدنى من الإهتمام، أم القاضي هي المرأة الأولى التي أعتنت بي.

كنتُ طفلًا غير باكي وإن لدغته أفعى؛ لأنني علمتُ أنَّ لا أحدَ سيستجيب لبكائي، أم القاضي هي المرأة التي علمتني كيف أبكي، كيف أن للبكاء طعمٌ حلو إذا عقبه إرضاء، كيف أن البكاء وسيلة للترويج عن الآلام غير الصالحة للشرح والمباحثة، امرأة سمراء ضاحكة الثغر، حلوة العطاء، امرأة تباغت الخوف إذا وجد، وهي المرأة التي جعلتني انتظر كثيرًا لعودة غائب لن يعود مطلقًا، انتظر عودة ريحانة، حتى أنَّني إلى اليوم أستيقظ منتظرًا إياها، ريحانة وبالرغم من قلة إدراكها إلا أنَّها كانت الأم التي أردتها، لم أرغب يومًا في امتلاك أمًا مختلفة أكثر تذكرًا للأمور، أم القاضي لم ترحب بما يقوله النوردي وبخفايا الأمور التي لا يرد أن يفصح عنها، هي تخشي أن مهاب لعنة علي إيراب. فحين كنَّا صغارًا نلعب، كانت سيوفنا خشبية لا تقتل ولكن حين نحارب بعضنا بها كانت تؤلمنا وأحيانا تصيب أجسادنا بالجروح بسرعة اندفاعها وحدة اصطدامها بنا، كنتُ أحب أن أكون ضمن فريق مهاب، ونتهافت أن نكون أشراس ولسنا إيريين وذلك لأن الأسطورة كانت تحكي عن **اتحاد غريبين، وانفراط معقود، وثارمُحب، ستسقط إيراب على إثرهن**

لم نكن نفهم سوى ستسقط إيراب، كنا أطفال نريد أن ننتصر، أن نفرح كما نرى بعودة جيوشنا حين تنتصر، وحين كبرنا أصبحنا نقاتل حتى لا تسقط إيراب.

*****

حين جاءتْ أم القاضي وسألتنا وكنت مُختبئ أترصد لهم:

- من انتصر يا رجال ؟

فأجابها المنتصر - مناضلين من أجل إيراب ولن نستسلم.

تساءلت أم القاضي مداعبة لي - من هذا الشرسي الذي يختبئ بالخلف؟

تركتُ موضعي وسيفي الخشبي وأقبلت عليها، ووقفت مقابلًا لها وتبعني شيخون وثابت، كانت تبتسم وهي تمسح الفحم الذي لطخت به وجهي وبادرتها بسؤالي حتى لا تلومني على كوني انضم في فريق الأشراس حتى لا أُهزم

- متى سيعود الجيش؟

فأجابتني - الأخبار تتوالى أن الجيش استطاع استرجاع قرية ترمين ـترمين آخر ما تشرق عليه شمس إيراب، غربهاـ ثم أمسكت يدايا وأغمضت عيناها.

- حمدًا الله لم يستطع الأشراس الدخول إلى إيراب.

خرج مهاب من مخبئه بعدما أصابه نضال مستغلًا تركنا لمواقعنا مبغاتًا له، نظر في غضب إلى أم القاضي، لائمًا إيانا على تركنا مواقعنا السرية، وخروجنا نتحدث معها دون الإعلان عن انتهاء اللعبة، وأنه لن يسامحنا، قائلًا لها — خدعتكم، خدعتنا، وانطلق.

لاحظتُ قطرات من الدماء تسقط من يده وملابسه الممزقة وكأنه كان باشتباك، التفتُ يميني ويساري ولم أجد نضال، أسرعتُ أركض خلفه، ناديته وأمسكت بزراعه فأفلته مني، ثم زدت سرعتي وسددت طريقهـخفضت صوتي ـ

-خدعنا نضال يا صديقي، أزاحني من طريقه وانطلق مسرعًا إلى صفية، كنت في أشد الحاجة لسماع القصة حين يرويها لها.

كيف سيكون فهمه، أمشترك في خداعه؟ أم عدم رجاحة عقلي وقتها لم تمكني من فهم ما حدث، وربما يظن بنا الحسنى ويبرئنا جميعا، ويبقى نضال هو من خدعه وحده، الغريب أن أم القاضي لم تلتفت لوهله لانزعاج مهاب بالرغم أن المشاعر المهملة، مشاعر مذتذبة، مشاعر لا تموت، مشاعر تنتظر أن تظهر لتنتقم.

*****

سرجي أصبح مهاب حين نشأ علي أرض سرجة في رعاية صفية، صفية وحدها، تستطيع النساء وحدهن أن ينشئوا أبطالاً، اعتقد أن هذا القدر من الأمومة الذي تكنه النساء داخلهن قد ينبت الأرض زهرًا بعد أن كانت أرض قيعان ــ أرض لا تنبت ــ فكل الحب للآتي أنجبن والآتي أحببن، يُذكر أن صفية أتت إلى إيراب بعد حرق قريتها، معركة خاضها رجال قريتهم بل خاضوها جميعًا، فقدت فيها رضيعًا بل أنها فقدت الجميع، معركة حدثت بنيسان قتل بها الجميع وحرقت قريتهم، ونجت صفية وحدها.

حين أتى الجنود من إيراب لأجل إمدادهم، كان الأشراس قد استنفذوا الكثير من طاقتهم فانهزموا أمام جيش إيراب الذي لم يفعل الكثير في المعركة، قُتل المحاربون ولم يسمحوا أن تطئ أقدام الأشراس أرضهم، قُتلوا وانتصروا وهنا بدأتُ أُفكر ما هو الانتصار؟ هل شعروا بانتصارهم؟! وما هي الطقوس التي نتمنى أن نحظى بها لنطلق عليه انتصارًا؟ أكل نصر تعقبه هزيمة؟ وكل هزيمة يليها انتصار؟ أكل معركة يجب أن ننتصر فيها؟!

*****

اختلف ساكني قرية سرجة في تقبل مهاب، والتحدث عنه، انشقت آرائهم، فالشق الأول رأى أنه علامة للنصر، والشق الثاني آمن بهلاك إيرب على يده، نظر الأشقر إلى علامة يده ثم شخصت عيناه فزعًا بعد أن حدَّق بها وقال هلكنا، على النقيض تمامًا نظرت إليه صفية التي استوطنت بسرجة وحملته قائلة نجا.

التحق مهاب معي بالجيش كعسكري بإحدى السرايا المهمة ثم ما لبث أن أصبح قائدا لها، السرايا بإيراب تتنوع بين السرايا الاستكشافية والانقاذية والتأمينية وسرايا للمراوغة، السرية تتكون غالبا من ثلاثين جنديًا، كل جندي يحمي جنديًا، كم كنّا نتنبه أن أكثر الضربات حدة تلك التي تصيبنا من الخلف، الطعنة الخلفية أشد ألما، على وجوهنا نسقط، طعنة تشير أن صاحبها مات مخان.

الأشراس يظهرون بشكل مفاجئ، يختفون وظهورهم مقترن بسقوط أحدنا بطعنة من ظهره، لا يحاربننا إذا التقينا بوجوههم المستترة، كنتُ أنا دائماً ظهر مهاب في الحروب، لم يدرك المنتصر أني لا أستطيع أن أخون، وكيف أخون من ائتمنني؟! فكيف يخون الخائنون؟! فلم أكن أجيد وقتها أن أخون من اتكئ علي، و مهاب لا يتكئ على غيري في الحروب، حين جاء المنتصر مازحًا يقول : أيكون نصر إيراب بغفلة من يحيى عن مهاب؟ !

*****

الثاني من حزيران ألقى مهاب خطبته حين دخلنا بقرية وأراد أن يمكث بها سراياه.

(أيها الجنود.... لملموا طباعكم محاسنها وسوءها عن من حولكم، ولا تنخدعوا بحسن ما قد تروا وترموا بثيابكم أرضًا فتطؤها أقدام نجسة، أيها الجنود : لا تملؤوا من قيعان من حولكم ماءً فليست كل القيعان طاهرة، يوجد قانون للأرض إذا زرعت شوكًا حصدته وإن زرعت حُسنًا حصدت، لا تُخضع البشر لقوانين الطبيعة، قانون البشر إذا زرعت بنفسٍ شيئًا ستنبت ما هي عليه لا ما زرعت بها، اكفلوا لأنفسكم حق الدفاع عنها، خضتم أسوء المعارك ستكتشفوا في نهاية المطاف أن أرواحكم كانت أفضل من حاربتم من أجلها، تعلموا النظر بطرق عميقة شوك الحيوان يخفي تحته قلبًا، لا تنخدعوا بمظاهر الأمور، دعوا الاعتقادات تنهار أرضًا ما لم تدعم بأقوى الأدلة، لا تتمسكوا بشيء كل ما تكتسبه من الحياة تستطيع تعويضه وامتلاك ما يفاضله)

أتساءل كثيرًا هل هذه الحروب بداخلنا أم مِن حولنا؟ كتلك الأعاصير التي تصيب مملكتنا فتُصِيبُنا وحينها نحتمي بسكنانا فهل بالداخل من سكن يحتمي فيه السلام بداخلنا؟! فالأجساد لا تنجو من الحروب فهل القلوب ناجية؟!

سألتُ مهاب - أخبرني عن الحب، صفه لي بشكل استشعره دون استخدام تشبيهات لا يجيد محارب مثلي استشعارها، رجل لم يعرف الحب قط كأن تقول لي هو كشعور انتصار مظلوم، واكتفاء محروم، وسكينة ملهوف، واطمئنان راجف، صفه لي بشكل يليق بمحب، بشكل أكثر شعورًا

فأجابني : - أن لا تشعر، لا تشعر إن كنت بحرب أو سلم، وأن لا تشعر إن كان من حولك صخبًا أو هادئًا، سلامًا بداخلك مستوطن.

في الخامس والعشرين من حزيران، التقينا بليلى، سلامًا استوطن بداخله وكنّا بالشتاء ببلدة عتمة الثلوج على تُرب أرضها، كانت ليلى كأن تُزهر في الشتاء، شعاع وسط العتمة انبعث، هدوء وسط العاصفة، بينما كنَّا نمشي في الطرقات، التقيناها.

عيناها كانت محددة من بين ثنايا الجلد الملفوف حول عنقها موصول بلفاف رأسها، ردائها أسود، كنَّا نمشي بطريق معاكس لها وبعد أن عبرناها توقفا واستدارا كلاهما تبادلا نظرة ، حب بين أضلعه استقر.

*****

قرية عتمة تعني الظلمة، أي الظلمة الموجودة بالشق الأيسر من القرية، نهر يشقها، شق مرعى وشق سكنى، فإذا حل الظلام أصبح شق المرعى عتمة، موحشًا، يقال أن الأشراس يظهرون به ليلًا، فكانت سرايانا هناك لمعرفة صحة ما يروى، عند قدومنا اصطحبنا الأكثمي الرجل الخمسيني شعره كثيف أسود وعيناه غائرتين داخل عظام وجهه، يشرح لنا مداخل عتمة ومنافذها ثم أشار إلى بيت :

- ومن هنا أول من فُقِد، فقدنا بارع صبي في العاشرة في المرعى ليلًا قتله الأشراس ــ الهواء يهز دمية معلقة على باب الدار ــ البيت الذي يليه عائلة كاملة بعد الحادثة الأولى بعام بني وردان اختفوا جميعًا ليلًا بالمرعى.

قاطعه مهاب - كيف اختفوا؟ ولماذا الأشراس؟

أكمل الأكثمي متجاهلا أسئلة مهاب، وجاوز بسبابته بضع منازل، ثم أشار إلى بيت.

- ليلى حكت، كانوا مجموعة من الرجال يرتدون عباءات سوداء ذو وجوه مستترة، لم يكن ابن الزاهقي عمها يؤمن بما كانوا يقولون، مع حلول العتمة على المرعي مكث يكمل عمله كانت ليلي في صحبته، وحين ظهروا جذبت عباءته أن الكثير من الأشراس يقتربون يلتفون حولهم، همس إليها أن تختبئ ولا تخرج مهما حدث، اختطفوه حيًا ومنذ ذاك اليوم لم تذهب إلى المرعى.

*****

الأول من تموز نتفحص أطراف عتمة، أدركناها، تلحق بطفل يبكي كفاقد أو مفقود يتلعثم وهو يشير لها بشيء على طرف القرية تحاول الإمساك به فينفلتُ منها، كلما أمسكت أطراف ملابسه، انطلق مهاب بجواده فأمسك بها قبل أن تخرج عن القرية، نظرته أثارت الضجيج بداخلها أمسكت بمهاب وكأنها تخاف أن تنفلت عنه، كانت تنظر إليه وكأنها تشفق أن تستيقظ إن كان حلمًا تحلم به.

انطلقتُ مع المنتصر نبحث عن ذاك الطفل لم نعثر عليه ازدادت بداخلي الظنون، كيف اختفى؟! شكي ابتدأ منذ يومها، و لم ينتبه المنتصر إلا لنظرة مهاب لها، لم ينتبه إلا لذاك الحب المرود بداخلهما.

*****

خلقنا محاربين، بمجرد معرفة أهل البلاد أننا جنود يزيد الترحاب بنا وإذا أظهرنا من هويتنا بشكل أكبر وأننا قادة سرايا بجيش إيراب فكأننا أهل البلدة لا ضيوف بها، فأردتُ أنْ أعرف من أنا، دخلتُ مع مهاب قرية عتمة مُخلفين ألقابنا وأسماءنا كان هو(يونس) وكنتُ أنا (جابر العصّار) .

التقينا بليلى مرة أخرى، صحبة من النساء كانت تجول من حولها، فتيات يمرحن، وأطفال يلعبن، وفي النهاية الكل عائد بحطب إلى مسكنه، الشتاء هنا، بارد، قارص، كانت تجلس بخيوط الصوف الأسود تُنشأ العقدة تلو الأخرى، تخيط عباءة سوداء، الكل هنا يصنعها حتى إذا اضطروا للخروج مساءًا التفوا بها، الكل هنا خائف، مرتعب، يُريد أن يصبح جزءًا من العتمة إذا كانت العتمة ستبتلعهم إن اختلفوا عنها.

لا أعلم هل الخيط جرى منها أم أنها من بعثته إليه ليقله إليها، ولكنها لم تكن حيلة لم تأتي لاسترداده، مشت خطوات ثم أتت إلى منتصف الخيط فقطعته، حاول الاحتفاظ بخيطها ذاك اليوم، فاحتفاظُنا بالأشياء والتفريط بها يكمن في رغبتنا بأن نحتفظ أو نفرط بتلك اللحظات وقد نبرهن لأنفسنا أننا كنا سعداء وأنَّ هذا الحزن ما هو إلا ضيف عابر.

اقتربت ليلى، وقفت أمامنا مدت الرداء إليه

- لاحظتُ خروجك ليًلا دون رداءً أسود فصنعته لك حتى لا تبتلعك عتمة قريتنا، لا نريد المزيد من الحزن، لا أريد المزيد من الخوف لنا، ارحل أيها الغريب عنَّا فعتمة لا تناسبك.

لم أكن أدري أي عتمة تقصد، أعتمة القريه؟ أم عتمة ساكنيها؟ ولما لا يرحلوا جميعهم عنها؟! ولما نتمسك بالأشياء رغم غضاضتها؟! كأنتي مانيسا رغم تيبسي معكي تمسكتي بي، أم أن جذورهم ممتدة بها كمثلي مهما ابتعدت تبقى سرحة تشدني بساكنيها، الذكريات تبقى هي المهرب الأول حين تعصف الأحوال بنا، في حين أنها كانت حاضرًا كنَّا نتطلع كثيرًا بالمستقبل عنها.

تعمدتُ أنْ لا أُفصح عن هويته ونياديته يونس ولأنَّها لو عرفت أنه القائد مهاب قد ترى لذلك بريق بعينيه لن تجده بيونس فانبهارنا بالأشياء وسرعة انكشافها وإن كانت غير صدئة فهي غير التي كنَّا نبغي، غير الذي حلمنا به، كالسقوط من أعلى الهاوية.

سألته ليلى :

- لماذا أنت هنا؟ _سكت مهاب قليلًا ثم التفت عنه_

- في الحقيقة أنا لا أدري سر قدومي هنا، قدمايا تسحباني إليكِ دائمًا، أعتقد أن وجودي هنا لأنكِ، أني آتي إليكِ، استدارت إليه وكان الحب يلوح لها من عينيه.

نداء من الخلف - ليلى، جعلها تنسحب، ثم استدارت بكامل جسدها عنه، لم يسمح مهاب أن ينتهي الحديث الأول بينهما هكذا لا يريد أن ينتهي بعد أن بعثرت مشاعره، أن ينتهي بنظرة منها لا يريد تأويلها هو كما يشاء، كأن ينتهي حلم في المنتصف.

فناداها:

- انتظري .

توقفت تمامًا ثم التفتت وتقدمت بضع خطوات حتى كادت تلامسه نظراتها حادة، عيناها متسعتين وسألته :

- من أنت ؟ ومن أين جئت؟ سكتت قليلًا :

- إن اقتربت منك أرحتني وإن نظرت إليك ارتويت حبًا، وإن تبسمت لي أشرقت دنياي، وإن غبت عني أفجعتني، لكن أخبرني ما فائدة أن تجعلني أهيم حبًا وشوقًا وعشقًا بك عمرًا وقد يموت قلبي لغياب أو فراق، في جمالك قبح مستتر، وفي انشغالنا هذا مر إذا حل حبل الوصال، أنت رائع وهذا يخيفني فعلينا بتر هذا الشعور، رحلت و لم تكن صادقة في قولها كلما مرت علينا نظرتْ مطمئنة ببقاءه.

منتصف تموز وقد قضينا الشهور نمكث بعتمة، لم نرى فيهن شرسي بليل أو نهار بمرعى أو بسكنى، ولكن مهاب أكدَّ خبر وجودهم وظهورهم ليلًا، لم اكن أعلم أي الدلائل يستند عليها أم أن حادثة ليلى منذ أعوام تبرهن صدقه؟! كيف يُدخل سرياه بمعركة لا عدو فيها، بالرغم من ذلك كنتُ على ثقة من كلمات مهاب وأنهم هاهنا مستوطنون، يظهرون في خفي عن أنظارنا، دائمًا يحمل مهاب إلينا أمورًا صادقة ما كنت أدري من أي مصدر يستمدها.

*****

انقسامات بالسرايا بدأت بالظهور حين بدأ أمر مهاب يتضح، حين اجتمع جنود السرايا إلى مهاب طالبين معرفة بقائهم بعتمة، رفع أحد الجنود الموالين لمهاب يدعى الشاربي صوته يخاطبنا جميعًا :

- أيها القائد الوقت امتد طويلًا و لا شيء يظهر، لا أحد هنا بعتمة غير أهلها، ما فائدة مكوثنا نريد أن نذهب إلى الوطن، أريد رؤية شمس سرحة مره أخرى، لدي عائلة .

بدأت الأصوات من حوله تتعالى لدي عائلة، جئنا لقتال الأشراس فإن لم يكونوا فلنعد إلى الوطن، بدأ الجميع بالتحدث فبدأتُ أخاطبهم :

- ماذا إن كانوا هنا، في الشهور الماضيه حدثت حادثة الطفل الذي اختفى بالمرعى.

رد المنتصر :

- لم يكن طفل يا يحيى كانت فتاة تائة وردها القائد إلى عتمة.

أذكر أنَّ المنتصر رأى الصبي معي وسألني عنه يومها، ولكن مهاب لم يتحدث إلا قوله :

-إذا كان الرماد لا يحرق أيديكم فسأبعث إلى القائد عثمان أي الأمور نفعل، واختفى بعد تلك الكلمات عدة ليال لم أعرف خلالها أين مكث؟ وحين عاد، عاد إلى ليلى.

- ليلى استمعي إليَّ أريد أن أطلعكي على الكثير من التغيرات التي تطرأ عليَّ والتي تؤرقني، في الحقيقة لم أكن أريد أن يحدث هذا الأمر مطلقًا، حتى أنني طوال الفترة الماضية كنت في محاولة صعبة لإخفائه عن نفسي، حيث الاعتراف به يعد فرط للعقد المعقود بإحكام، اكتشفتُ أنكِ تشغلي حيزًا مهمًا من اهتمامي، وتأخذي الشق الأكبر من التفكير لدي، يزعجني كثيرا أني افتقدك بشدة عندما تغيبين، بل زاد الأمر أني أبحث عنكي حتى في زروة انشغالي، الوضع قد انفلت من يدي ولا أريد السيطرة عليه.

أنتِ العالم الجميل المستثنى من هذا العالم .

أنتِ الشعلة التي أضاءت دون أن تُحرق.

أنتِ كل الوعود التي تمنيت الإيفاء بها .

أنتِ الزهرة التي تمنيت أن تنبت في قحطاء داخلي.

أنتِ الإجابة المنطقية لكل الأسئلة التي طرحتها.

وقف بجانبها عند التلة، كانت صوت ضحكاتها تتعالى وهي تدور تمسك بأناملها أطراف يده لتجعل جمعة يدهما مركز تدور من حوله، وتغلق عيناها عن الدنيا لما تدور حتى إذا تلاقا وجهيهما تنظر إليه.

***

ذهبتُ إلى المنتصر:

- أي فتاة كانت ضائعة؟ ألم تبحث عن الصبي حين اختفى؟!

- إذا كان عليه أن يبقى، فلن نمكث معه بعتمة، هو لا وطن له، ونبعث بصفية إليه هنا.

- المعركة مع الأشراس وحدهم، أخشى أن تفرقوا الجيش لفتنتكم المخلقة.

وبالرغم أننا سافرنا كثيرًا وأبعدتنا المسافات عن إيراب، قد كبرنا وكل الأشياء التي كنَّا نحملها صغارًا قد كبرت معنا، حتى أن تلك الفتنة الصغيرة التي أنشاها نضال حين كُنا صغارًا عن كون مهاب من الأشراس وأننا سنقتله حين نكبر وأنه يأسى أن إيراب تربي شرسيًا، هذه الفتنة كبرت و امتدت حتى طالت الجيش، كم كنتُ أخشى يا مانيسا أن يسقط الجيش عقب هذه الفتنة.

ثم تابع :

- قد اتحد الغريبان .

- أي غريبان؟!

استدرت عنه وسألته مرة أخرى وحين ألتزم صمته، سألته :

- وبمن اتحد مهاب؟

تغيرت ملامح وجهي تمامًا وكأنني تلك الليلة بت معهم، وكأني بوضع مهاب ضمن أسباب هلاك إيراب بدأت للإنصياع لأفكارهم، أو أنني أصبحت عدوًا لمهاب.

أجابني بانفعال بدا ملحوظ في حديثه:

- حرقت القرية بأكملها وتنجو صفية ووجد مهاب وحده من قرية لا نعرفها، اتحد غربين عنَّا يا يحيى.

المنتصر، نائبي في سريتي، رافضًا لقرار مهاب أن نبقى، أن نحارب، أن نبدئ بالهجوم على الأشراس غير المتواجدين من خلال رؤيته، أن نقاتل تحت إمرته وبخطته المرسلة إلى القادة بالجيش، ثم ضحك بسخريه - تهئ للرجوع إلى سرجة.

*****

حين كنا بسرجة، كنت أُلملم الحطب مع النوردي والدي، حدثته:

- كيف إن مررنا بطرق خاطئة وسراديبها مظلمة؟ هل كان الخطأ في اختيار السبل التي نمر منها؟!

فقال لي :

- يا يحيى، ليست كل الطرق بدايتها مزهرة، وبعض الزهور التي تراها قد تكون غاضبة، و البدايات لا تعبر عن النهايات، أكل غلاف يفصح عما بداخله؟! يراودني يا يحيى أننا نخطئ حين نصر على اختيار سبيل للمضي فيه وأن لا ننتظر شهاب ينير شيئًا من الطريق حتى نسلكه، فإذا ضللت فلا تمشي وراء القافلة انتظر فالمنتصف سيناسبك.

*****

الجميع انتظر رد القائد عثمان، بينما أنا بعثت رسالتي إلى والدي النوردي :

(إلى والدي القائد النوردي، سلام الله عليك.... وأما بعد

لا أعلم كيف للسبل التي أعرفها أن تقودني إلى سبيل لا أعرفه، وكيف عليا أن أحدد الطريق الصحيح، حتى أن الفتنة التي يعاني منها جيش إيراب تتفاقم، إلى من أنحاز يا أبتي إن كان المنتصف لا يناسبني وكلا الجانبين سأهلك إن سرت بأحدهما، هل يجب عليّ أن أسير بالمنتصف حتى لا أهلك وأُهلك من معي؟! لقد حدثتني عن الانتظار به ولكنك لم تقل سر بالمنتصف)

- ليلى بماذا تحلمين.

- بماذا تحلم أنت.

- فوقف بأعلى نقطة بالتلة وآخر حجر راسي عليها، مدد يداه وأخبرها:

- أحلم يا ليلى أن يكون لدي جناحين قويين لأتحرر بهما من ثوابتي.

استدار إليها:

- وأنتِ ؟

- أن يكون لك جناحين.

- يكون لكِ جناحين؟!

- أن يكون لكَ أنت جناحين تطير بهما كيفما تريد، حلمي أن يشرق حلمك.

كأن يزهر الحب وسط الأعاصير والحروب، يُوجد لنفسه حرمًا لا يدخله إلا طوّاف السلام، مانيسا، الحب قيلولة الحياة، والمرسى الأخير الذي لا سفر بعده، ليلى جمعت بين السلم والحرب، بين كل الأمور ونواقضها وكل الأفعال وانعكاسها، كان ينظر إليها وهي تنظر إلى القرية من الأعلى فاستدركت نظراته، فالتفتت إليه:

- هل علينا أن نتبادل الأدوار أنظر أنا إليك وتنظر أنت للعالم.

- ضحك وهو ينظر إليها فأكملت.

- معك المساء جميل كأنت، أنت رائع الحد الذي يدهشني حتى أن كل الأشياء تبدو جميلة معك وكأن الجمال من حولك ما هو إلا انعكاس لبريق عينيك المتلئلئتين.

اعتدل مهاب بجلسته ثم سأل ليلى:

- أخبروني أنكِ رأيتي الأشراس، هل رأيتيهم؟ كيف يظهرون؟ هل هاجموا أحدًا؟ أم أن الخوف يهيئ لكم؟

- نحن لسنا خائفين يا يونس، تراب الفقد غبَّر وجوهنا،

عدني يا يونس ألَّا تذهب إلى المرعى حين تغرب الشمس أبدًا، مهما حدث، فسكت ،أعادت مره أخرى

- عدني.

*****

غضب الجنود لم ينطفئ، وتخطيط مهاب لحرب مجهولة لم يهدأ، تحول الأمر إلى صراع بين جنود السرايا إلى وجود الأشراس أو انتفاء وجودهم، انتقل الصراع بيننا بدل أن كان بيننا وبينهم، وبدأ انشغالنا بنا عنهم، وكلٌ يُثبتُ ويُنكر، أي أنَّ جزءًا منا أراد أن ينتصرعلى بعضنا، أو خذلان يصيبهم ولا يمسسنا، انشققنا إلى شقين، وأصبح طريقنا سبيلين لا تلاقي بينهما، حتى أنَّ ليلى لم تكن تدري ما يحدث مع أن اسمها كان يذكر خلسة بين خيامنا، ولأنها أكدت رؤيتهم البعض قال صدقت والبعض أنكر عليها وقال ما رأت، ولأنَّ بمهاب شيء نابض منها، كانت مرمى لألسنتهم، بدى لي أن الكثير من الانشقاقات تظهر حين تُكره ذواتنا، وأنَّ للبعض أسباب للعداوة غير واضحة لنا.

انصراف مهاب بالصراعات جعله ينشغل عنها، هي لا تعلم بمهاب لا تعلم شيء عن انقسامات السرايا من حوله، أظهرت غضبها حين أتى إلى القرية أن تستدير عنه، لا تنظر إليه، اختفت من بين الحاضرين فأرسل إليها رسالته الأولى:

(ليلتي، يجازي الحب بالحب والفقد بالحنين والوصال بالتعلق كل أمرًا يصيبنا يبقي أثره على ملامحنا واضحا، رسالة عيناكِ غير مكتملة أركان الجفى، علمتُ حينها أنكِ تجيدين ممارسة قسوة المحبين، ما قاض قاضي خصمه، لكن العدل فيكِ من شيم النبل المصطفى بيكِ فأتيتُكِ رافع مظلمتي، أعرضتِ عني لما التقيتكِ، وراودتيني في ثباتي، العالم بداخلي يحترق، فتبسمي علَّ السماء تمطر فينطفئ، كل حبيب يلاقي حبيبه بالود وحسن الدلال فلا تعرضي عني لما تُلَاقيني وإن لم أتمم حبل الوصال، أخبرك سرًا سمعته، يُقال أن الذي بيني وبينك دواء يداوى به كل السقم والعلل، وداء لا شفاء منه ولا دواء

إلى ليلى، ليلى ضوء عتمة)

إنما سطوة رسائل الحب التي تمارسها هذه الوريقات الممزوجة بشيء من الحبر على القلوب النابضة فأرسلت إليه :

(أي بقاع الأرض تحتضنك، وأي العيون حظيت برؤيتك، وأي هواء مر بك فاستعطر بعطرك، أي همس أضعته في غير مسمعي، وكيف انحنى جفن عينيك حين التقى بغيري، في القلب آه جامحة في الفضاء، فيضيق صدري إذ توقف الريح فأسله عنك فلا يريح، وتغيب عن ذي العين بلا لقيا وأناجيك فلا تجيب، يظن الرائي حين يصبح أنه مبصرًا ومن لم يراك فإنما عيناه ما رأت إلا السراب، فأعصمت الفؤاد عن الهوى لما حللت به كأنك دين نزل أرض الملحدين فأصبحوا نساك

إلى يونس)

أيتها الطاعة التي لم أفعلها، و الإثم الذي ارتكبته بشدة، والأبجدية التي لم أُفقه نفسي فيها لأتفهم كلماتها، أنتِ العلم الذي أعرضتُ عن تعلمه، مانيسا، وأنا هنا وأنا في هذا البرزخ أؤمن أن الأكثر حدة لم تكن حروب الأشراس بل كانت حروبنا نحن من دونهم، لم نكن متحدين لننتصر، كنت أعلم أننا سننهزم إن أصبح مهاب قائدًا لنا ولكن ماذا لو استبدلنا مهاب بغيره هل ستنتهي خلافتنا؟ هل سنجتمع جميعنا تحت امرته؟ هل ستختفي الخلافات والدسائس؟ هل ينزع فتيل الفتنة والتمرد؟ كنَّا ستة سريا، قرابة المئتي جندي للتأكد فقط من وجود الأشراس كما تتارت الرسائل إلينا من أهل عتمة.

قرر القائد عثمان قائد الجيش أن يسد كل الثغور التي قد ينفذ منها الأشراس وأن لا يترك شبرًا لهم، أُدرك أن مهاب كان يعلم أننا أتينا فقط للتأكد لا لمحاربتهم مطلقًا بالنسبة إليَّ كنت لا أريد أن أحارب بقيادة مهاب، الكثير من الرافضين تحت إمرته أي أن الكثير من المعادين له في الجيش، لم أكن أستطيع فهم الكره الذي يخلق الخيانة والخداع، أعلم أن المعارك تقتل غير المتمسكين بيد واحدة، فهمت كيف أننا نتحمل الكفل الأكبر من هزئمنا.

النصف الآخر من آذار هجم الأشراس على عتمة، هجوم مفاجئ، في هذا اليوم صدَّق الجميع أن الأشراس هاهنا بعتمة، قدراتهم عالية، أساليبهم مختلفة، قتالهم عنيف، إلا تلك الهجمة كان قتالهم بها، بطيء، ضعيف، وبعدما أيقنت النصر وأوشك حدوثه ولامست باديه بأناملي انقضى وانتحى وكأنه انفلت من بين أصابعي بعد أن كدتُ أُطبق عليه بكلتا يدي، نار تتصاعد من خيمنا، كانت خدعة، لم تكن معركة، ترك مهاب القتال مناديا بصوت عال:

- صربلاء

وانحل جزءًا من الجيش مشكلًا طريقًا لركض القائد، وارتبك الجيش، واستغلى رفضة مهاب تراجعه منادين: انسحب القائد فانسحبوا، وقفتُ بسيفي وثوقًا بمهاب اثبتوا، خدعة مهاب سننتصر، ما بين الهجوم والانسحاب، وما بين اختفاء مهاب وتخلخل الجيش، تعثر جوادي وأسرتُ، أستسلموا مبكرًا، إلا أنَّ أبي لم يكن هناك يومها ليقاتل من أجلي حين يستسلم الجميع.

في تلك اللحظات كنت أفكر بكل شيء، برسالة أبي التي لن أستلمها، كيف سيرسلوا إليه خبري، أريد أن أطَّلِع على فحوى رسالتهم، أريدهم أن يذكروا له أنني ما زلت حيًا، لا أريد أن يُفجعُوا قلبه بشيء لم يحدث بعد، أو عليهم أن يخبروه بمقتلي فلا داعي للأمل، فكرتُ بمهاب وانسحابه، ومَن صربلاء؟! هل كنت أسير في الاتجاه الخاطئ ومهاب شرسي، فقدت وعي واستيقظتُ ملقى على الأرض، سيرتُ بظلام دامس، وظهر حشد يركض، الجميع يهرب، هربتُ معهم.

دخلتُ خلسة إلى المدينة أتلصص أكان من بها بشر أم أشراس، وضع أحدهم يده على كتفي، أخبرني أنني هنا بالمدينة الآمنة، وأن المكان آمن، لا تكذب، لا تخن، الجميع هنا صادقون، لا تؤذي أحد، هنا أن تحيا بأخلاق، فأرخيتُ يدي من وضع الاستعداد للدفاع عني، أرخيت جسدي كله، شعرتُ بهدوء يجري بي، فشدَّ ما معي من نقود، ونادى في من حولنا سارق، سارق، فالتف الجميع من حولي وحضر السياف ومعه سيفه، ومال عليَّ قائلًا:

- قاسم ما سرقت تنحو، تم اقتيادي إلى الحاكم، فسألني: ما سُرق أكثيرًا نتقاسمه؟! ثم ضحك بقهقهة متقطعة، كانت سخريتهم مذلة لقائدًا مثلي.

مكثتُ بسجن بأطراف المدينة، كانت ليلتي الأولى، إذ جاءني رجل من بعيد:

- أعلم أنك لست بسارق، نظر إلى من حولنا واستكمل بصوت منخفض أكاد اسمعه:

- الكثير منهم مبرئين، ووعدني بالخروج من هنا مع عتمة الليل، وحينها انتظرتُ الليل بعتمتة، خرجنا ثلاث من الرجال وأنا، هاربين.

أخبرني بثلاث صعوبات سنمر بها، الأولى اجتياز نفق والثانية اجتياز حارسي النفق وثالثهما اجتياز سور السجن، دائمًا كنت لا أفهم وأكمل صنعي، لا أعلم وأستمر بجهلي، أستغرب الأمور دون أن أفسرها، وتعليقي للأمور دون تفسيرها بشكل منطقي يتزايد ومع ذلك أكمل، اجتيازنا للنفق كان ميسرًا، وعلينا اجتياز حارسي البوابة الكبرى، رأنا أحدهما، اعتقدت هلاكنا لكنه أمرني

أن لا أركض خلفهم حتى لا نلفت الأنظار، خفت أن أفكر حتي لا أستمع لعقلي، فانتظرت ثم ركضت من خلفهم ألحق بهم، أمسكني الحارس قائلًا ـ أمسكوا به هارب، ظهرت المؤامرة التي كانت واضحة من البداية ولكن تعلقي بالأشياء يعميني عن رؤية مفاسدها، فأنا تلك الفدية التي افتدوا بها، دقت الأجراس، هارب، وكُرِم الحارس ونمتُ أنا بزنزانتي منفردًا بي.

هدوء يلفني، وضجيج بداخلي، حُبستُ المزيد من الأيام في غياب الضوء عني، لم أكن أعلم بحلول الليل أو انجلائه، بدأتُ أتوه في العالم، وفي المواقيت والأزمنة، في الحقيقة لا أعلم أكنت تائهًا بالعالم؟ أم أن العالم كان بداخلي تائه؟!

بدأتُ أفكر لو أُرجعتُ إلى جيوشنا، لكانت تلك أول بلدة أطيح بها، ما اختلافهم عن الأشراس، وكلما مرت الأيام يزيد هدوئي، فيزداد تركيزي في فهم الأمور، الأبواب المغلقة تجعل أرواحنا تزداد سفرًا وهروبًا، حتى سألتُ نفسي عن اختلافهم عن من كانوا حولي، هنا فقط الأمور أكثر وضوحًا، أما من بالجيش فيستترون.

انتظرتُ كثيرًا علهم يسمحون لي بالدفاع عن نفسي، وأبرئها من جرائم لم تقترفها، مع الانتظار بدت لي الأمور مختلفة، ما فائدة إقناع الجميع أنهم مخطئون بحقي إذا كانوا غير مكترثين بي فلا مزيد من الإقناع، لا مزيد من شرح أشياء لن تُفهم، فقط عليَّ الشرح بطريقة أكثر فهمًا، أنا مقاتل، كنت أقاتل من أجل العالم، خلوتي بذاتي كشفت لي أن أهم وأقوى معركة بل وأشدها أهمية أن تقاتل من أجل ذاتك، قررت في تلك اللحظة أن هذه المعركة لأجلي فقط، هذه المعركة معركتي وعليَّ أن أقاتل فيها منفردًا، كما أن الانتصار بها واجب من أجل أن أحيا، في حين أن فتح الحارس باب زنزانتي هجمت عليه، لم أشفق حين لكمته بقوتي، لم يشفق أحد عليَّ طيلة مكوثي، نحيت الشفقة جانبًا، فقد تكون لغة غير مستخدمة، ثم انطلقتُ بالسيف على من يعترض طريقي، هاهنا رأيتُ الشمس مرة أخرى.

خرجتُ إلى الخارج، مع أن الداخل آمن عن المدينة نفسها، مكثت بسجنها عدة شهور على حد شعوري بالوقت الفائت عليَّ، بدأتُ أبحث عن مخرج منها فلا أجد.

حين جاءت امرأة وطلبت مني حمل متاعها إلى الدار، وبالرغم من تعرضي للخداع مرات عديدة، إلا أنَّني أردتُ أن أشعر بشيء من الآمن الذي افتقده، وحين أنزلتُ متاعها ركلتني بقدمها وأغلقتْ بابها أمامي، قررت أن أشبههم، ماكرًا، مستذئبًا، مخادع، أبغض الجميع، حتى نفسي أبغضها، ولكن يجب أن أعمل من أجلها.

رجل يصيح بمنتصف الطريق، ودماءه تنزف، وأنا أمر من جانبه يصيح وينادي، حتى أمسك طرف ردائي فركلته، وأنا الذي في زمن حربي كنتُ فارسًا، أذكر تلك الشرسية وقعت علي الأرض بعد ما أصبتها، حين اقتربتُ منها بسيفي وجدتها عزلاء، وما إن رأتني وكان السلاح بين يدي يشير إليها حتى أنَّ يداي لم تنزله بعد عن وضع الاستعداد، أغمضت عيناها فزعا مني، لم أقتلها نكثت سيفي تركتُها بإرادتي، تركتها تفر، انتبهتُ أن خلفي نضال يلوموني باستياء :

ـ كانت قريبه منك، سرعتهم عالية، ثم ضحك وتوهجت عيناه بالغدر وكأنه استدرك المؤامرة التي كنتُ أخوضها واستكل :

ـ أردتُ أن تأسرها تلك فعلة أكثر مكرًا من قتلها.

وضرب بيده على كتفي محمسًا إيايا :

ـ ستنال منها في المرة القادمة، كان مخطئًا لم أكن أريد أن تؤسر، أردتُها تذهب.

*****

رأيتكِ تقتربين، لم أرَ وجهك كاملًا، سترته أفسدت عليَّ أن أرَ النصف الآخر له، فناديت أن تقدمي، لا تخافي، فاقتربتي وأنتي ترجعين خطواتك أكثر مما تتقدمين بها، وبمجرد اقترابك لكمتك، فارتطمتي بالحائط إثر ضربتي، شفتاكي اختفت بالدماء، دفعتكي بكل ما أوتيت من قوة، وقولتِ بكل ما أوتيتِ من خوف مخادع، وتمتمتِ بكلمات لم أهتم أن أفهمها، ربَّ أن الأمور ساءت أكثر مما كنتُ أتوقعها، ونسيتُ من أنا؟ وأصبحتُ غير مفكر في كل شيء قد مضى.

لا تخبر مهاب بالأمر، سيفسد ما نفعل

القائد النوردي

أنا يحيى، يحيى النوردي ولدت ليلة السابع من أيلول، وقُتلتُ بليلة السابع التي تليتها بثلاثين أيلول، قائد الجناح الأيمن في الجيش، ولدت ليلًا، ولدتُ بالطريق ونحن مهاجرون إلى سرجة، شتتنا الحروب، قاد أبي الناجين من البلدة إلى سرجة إحدى قرى إيراب، ربما لم أستطع الانتظار أكثر بأن أبقى في الداخل، وكل الأشياء من حولي تتغير، لو كنت أعلم أن أمي ذات العشرين عامًا تمكن منها المرض لتمسكت بالداخل، كانت تقبل الدمية وتتركني أبكي، لم تكن تلحظ الفرق بيننا مع أن الاختلاف بيننا كان ملحوظ، ولكن عندما يزداد خوفها تخبئني وتترك الدمية، ومع عدم تميزها للأشياء من حولها، تفزع ليلًا وتوقظ أبي وتخبره باختفائي وأنا بجانبها، كانت تبحث عن طفل رضيع تحمله، لم تستطع ملاحظة أن جسدي يكبر، ويبحثُ أبي عني في أرجاء الغرفة، ثم يحمل شيئًا ويضعه بجانبها، ثم تشير إليَّ وتسأله:

— هل فقد هذا الطفل عائلته؟! ثم تبتسم لي وتأخذني إليها، كنتُ دائمًا أريد أن أخبرها أنَّها عائلتي.

*****

التاريخ الذي لن أؤارخه، هذا التاريخ الذي أزلته من ذاكرتي جعلني أتعلم أن تمكن الضعف يُولد القسوة.

في الغرفة التي بها أمي، كنت أفتح ذراعي أحاول أن أطير أحلق بهما إلى السماء علني ألحق روحها، وعندما أعجز أن ارتفع أجول يمينا ويسارًا لا أستقر حتي أتت أم القاضي تقاضيني بعدم هدوئي فكيف يهدأ طفلًا يامانيسا تحتضر أمه؟!

جذبتني خارج الحجرة أخبرتني وهي تغالب دموعها تحاول إقناعي أن ريحانة ذهبت وستعود، لم أعرها سمعي، ما أردتُ أن أبكي أو حتى أُظهر فهمي بأن ذهابها لا عودة منه، نعم لم أسامح أمي يومها، قسوت عليها كيف لها أن تنسحب هكذا من حياتي؟ فأنا لا أشعر بالأمن إلا وأنا ألعب بجوارها، لا ارتوي اطمئنان إلا إذا تبعتني عيناها، لا أهداء حد النوم إلا إذا ضمتني، إن كانت هي لا تدرك أني صغيرها يحيى، أنا أعي يامانيسا أنها أمي، يقمني ما تبقي منها.

بدأت أفتح عينايا على صوت ارتطام قطرات الماء المسرب على الصخرة، وضعتُ يدي حتى ملأتها بالماء، رأيتني في صورة غير مستقرة بين كفي، استذكرتُ ملامحي التي قد بدأت في نسيانها، زمنًا قد مضى وأنا هنا، كنتُ أصنع رماحًا أقذفها إلى الخارج علَّ أحدًا يعثر على رمحي وينادي سهم يحيى هاهنا، لم أؤمن بموتي كما أظن أن الجميع قد فعلوا، خلقنا من الطين، شيء من الأرض فأجسادنا تتهالك وتعجز وتشيخ، وتبقى أرواحنا ومشاعرنا متجددة لا تنضب، أردتُ أن تنتهي مشاعري إلى زمن معين، يموت الإحساس بي وأن لا أشعر مطلقًا .

*****

رأيتكِ مرة أخرى، لقد كنتِ عالقة، يبدو أني لست الوحيد هنا الباحث عن مخرج للهروب، وبرغم كل الأشياء السيئة والمخزية والمخيبة للظن التي قد حدثت، إلى أن شعور ما بداخلي لم ينتهي، كان مناضلًا لا يستسلم، فاقتربت منكِ، و ابتعدتِ أنتِ كنتِ تختفين بين الصخور المظلمة وأنا أحاول اتباعكِ وحرصتُ أن لا تتوهين مني، أو تغيبين عن عينايا حتى لا أفقدكِ، توقفتِ فاقتربتُ منكِ، لم تلتفتِ فأمسكتُ بسكينتي، وحين رأيتكِ أرخيت يدي، وسقطت السكينة التي كنت أحملها، كنتِ مختلفة، علمتُ أنك ليست إنسية بشكل كامل، تراجعتِ خطوات إلى الخلف، كنتِ تحدقين بي بعينيك:

-لا أريد إيذائك، أبحث عن ثقب أبيض وسط الظلام.

- أي ثقب؟

- أريد أن أتحرر، أغادر هذا المكان، ثم أشارتِ إلى السماء:

- ثقب أبيض وسط الظلام.

ـ القمر، أنتي تشرين إليه، لن تستطيعي الوصول .

ـ لا، علينا إدراكه، تقول أمي ستغادرين إذا أدركتِ الثقب الأبيض.

حاولت فهم الأمر، ربما تقصد أن المغادرة ستكون ليلًا، أو أننا نمشي باتجاه ظهور القمر، لم أكن أفهم مرادها، وفي حين تفكيري في الأمر حين التفتُ عنكِ غادرتي، كان كل شيء يثقب ويلتئم، كل شيء يطير مع الرياح ويستقر متى تهدأ، كل شيء من حولي يرحل ويعود أو لا يعود إلا أنكِ كنتِ الشيء الثابت، الشيء الرائع الذي حدث لي.

المشكله بشكل أساسي وبطريقة مختصرة مانيسا، أنني وقفت ثابتًا بينما كان العالم من حولي يتغير، وبعد عدة محاولات مني للتغير، تغيرت قدرتي على محاولة مجاراة العالم إلا أنني قررت ظلي كما أنا، فتزداد المشكلة أن العالم يتغير وأنا لا أفكر في تغير ثباتي.

كنت أُحاول البحث عنكِ، هذه المرة أنتِ من وجدني، بعدما يئست من إيجادك، همستِ لي فاستدرتُ إليكِ، كان كل شيء بداخلي يلتفتُ لك، يُريد الاقتراب منكِ، لاحظتُ أنك عمشاء لا ترين بوضوح، لديك استشعار للأشياء، سألتك - من أنتي؟! ولكنكِ لم تجيبي ثم أشارتِي إلى السماء بخيبة حين ولَّى القمر عنَّا.

- علينا الانتظار حتى يأتي الثقب المنير مرة أخرى.

- إنه القمر.

- لماذا غادرت الثقب المنير إلى هنا؟

- ولماذا غادرتيه أنتي؟

- لم أغادره، ولدتُ هنا، ولدتُ وسط هذا الظلام - وأنت؟

- أنا يحيى.

- وأنتِ.

وبدون تفكير اتفقت ثمانون مليار عصيبة بداخل رأسي وابتسمتُ : -- - أنت مانيسا _ مانيسا هو اسم ابنة نبي الله يوسف عليه السلام، سماها مانيسا لأن قدومها أنساه همومه _

ظهر الضباب فتمسكتِ بالحائط :

- احذر أن يبتلعك الدخان.

- وهذا ضباب.

- تمسك حتى لا تضيع مع الضباب.

فتمسكتُ حتى لا أضيع مع الضباب، كل الضباب الذي يحيط بي، جهلي بالذي أظن نفسي به عالما، لا أريد أن أضيع مع الأوهام والذكريات، لا أريد أن أضيع مع انفراط الأمل وتمكن اليأس، مع انعقاد الأمور وانفراطها، كتمسكي بالأشياء ثم التخلي عنها دون أسباب واضحة، لا أريد أن أضيع مع الهوى والراحلين والمتخلين والذكريات العالقة، لا أريد أن أضيع مع الضباب، أريد نقطة انطلاق أعود إليها حين يسحبني الضباب لأنطلق مجددًا، أريد مرسى يسحب سفينتي حين أبحر دون بوصلة نجاة، صدقتِ حين تمسكتِ حتى لا تضيعين مع الضباب.

نظرتُ إليكِ متبسمًا، ناسكًا بمعبد جهلكِ، كم كانت نظرتي قاصرة، حيث كنت أعتقد أن الضباب يضيع وحده، وأننا يمكننا العبور من خلاله دون أن نتماسك.

كنتُ أفكر كثيرًا في مرور القمر علينا حددت الليلة الرابعة عشر حين اكتمل القمر، تعقبته لاحظتُ انحصاره في اتجاه معين ثم يختفي، وحين أكملتُ سيري بدونه، وأنتِ تمسكين بطرف ردائي اكتشفتُ أننا نسير بدائرة منغلقة، ندور بها عدة دورات متتالية، صحراء لا نهاية لها، كل مساراتها تجعلك تدورين من حولها.

جلستُ بيئسٍ في إنهاء كربتي، كنتِ تنظرين إليَّ وكأني طوق النجاة لكِ، كنتِ تراقبيني ولا تتحدثين مطلقًا مع أني أستمر في الحديث ساعات بشكل متواصل، أنا الظمآن إلى أن أتحدث و أُفصح وأتكلم.

في صحوة أخرى بعد غفلة مني، جلستُ بجانبك، صحراء شاسعة تحيط بالمدينة، أمسكتُ بالبوصلة التي كنتِ تحتفظين بها أتفحصها، عند اكتمال القمر بدأت الإبرة المغناطيسية تدور بشدة ثم استقرت وأشارت إلى الأمام، البوصلة لا تعمل إلا حينما يكتمل القمر ويزداد ضوئه، وها قد بدأت رحلة قافلتي، قافلة من اثنين، أنا وأنتِ يا مانيسا.

*****

الثامن من تموز، وصلتُ إلى عتمة، وصلتُ إلى القرية التي خرجتُ منها أسيرًا، وصلتُ حيث كانت جنازة يتبعها الجنود، جميعهم يتبعونها، حين وصلتُ تركتكِ وذهبتُ وكأن تلك اللحظة تبعت لحظة قتالي في المعركة، كأن لا شيء حدث بينهما، حتى أن أسئلتي توارت عني، فقد أردتُ أن أسأل ما صربلاء؟ كيف انقضت المعركة؟ وأسأل عني؟ ومن تبعني؟ وعن والدي ورسالته المعلقة، أعَلم بفقدي؟ أردتُ أن أسأل عن الكثير ولكن كل شيء توارى في الخلف ولحقتُ بالجنود كأن بالأمس أغمضت عيني بجوارهم.

تلهفتُ بكل ألمٍ أن أعرف من يرقد بهذا الصندوق، من رحل دون أن يودعني، وحين رآني الجنود هتفوا بكل قوة، عاد يحيى، عاد من سيثأر للقائد، كنتُ أريد أن أقول لهم أي قائد أثأر له، أي أحد هناك بنعشه يرقد، من مات يا أسمعي؟ أخبرني أو لا تخبرني، فبدأت ألقي بناظري يمنة ويسرة، أنظر هنا وهناك، أريد أن أتفقد الجميع، وأفكر من هذا الذي سأختص بثأره وحدي من دونكم.

قدمني الجنود وهم يرفعون أسلحتهم عاد يحيى، عاد من سيثأر للنوردي، وهنا توقف النبض والفؤاد وأبيتُ الهواء أن يدخل بداخلي وكل الدموع باتت تنهمر، وأصبحت قدماي هشة كأن العالم وقف بقدميه على قدمي، لم أستطع إدراك هذا الألم وقتها، أردتُ أن أرجع إلى حيث كنت واكتفي بوجوده أو يَكفوا عن قول كلماتهم فقد أُخطئ مسمعي، ولكنهم زادوا وقالوا وأكدوا، تقدمتُ إلى الأمام و رأيتُ مهاب يُمسك بنعشه، فخاطبته مَن قُتل يا مهاب؟ لربما يكذب الجميع ويَصْدُقُنِي هو، كنتُ على أتم الاستعداد أن أكذبهم جميعًا وأصدقه، ولكنه ربت على كتفي وعبس عبوس يليق بفقدي.

ناولني نضال طرف نعشه وخاطبته بقلبي علَّه يسمعني وقلتُ له : أعلم أنك الشخص الوحيد المتيقظ هاهنا، وأنَّنا جميعًا غافلون، أرى الجميع يمشي من خلفك وكانوا ينظرون إلى فراشك المتحرك وكنتُ أرى أيديهم تحاول لمس الصندوق الذي ترقد بداخله، وكأنهم يحاولون النقر عليه للمرات الأخير لتستيقظ وكنتُ أنا أنظر إلى الغطاء علك ترفعه بيدك، علَّ هذه الطرقات توقظك، ولكنك أبيت أن تستفيق، أبيت أن تستيقظ، وكل شيء بداخلي أبى أن يستقر، أبى أن يُصدِق، وانهار كل ما بي.

وحين انتهت جنازته، سألتُ كيف قُتِل القائد؟

المعارك دامت من بعدي لم تتوقف وآتى القائد النوردي إلى عتمة، إلى حيث أُسر ولده، جاء إلى أخر نقطة معلومة كنتُ بها، كأنه سينطلق منها ليرجعني إليها.

الجميع اعتقد أني أُسرت بداخل قلاع الأشراس، أني كنتُ أحيى معهم، حتى أنا لم أكن أعلم كيف انفلتُ عنهم، قاد الجيش المعزز بألفي من الجنود الذين أتو معه، قُتِل أبي إصر إصابته من معركة خاضها بالجنود ضدهم، مات بعدها بشيء من الزمن، لم أُفصح عن شيء مما حدث لي، تركت الجميع يعتقد أني مكثتُ بقلاعهم عامًا كاملًا، أردتُ أن يثقوا بي حين نهجم على حصونهم وقلاعهم.

ثم سألت عن ما صربلاء، ولكن لم يخبرني أحد حتى أن نضال نطق صربلاء من بعدي تعجب من كلمتي لم يكن يدري عنها، وحين سألت المنتصر:

- كلمة لم أعرف معناها، نطقها مهاب بلغة شرسية ولكن أخبرني يا يحيى كيف علمتَ بخطة مهاب و أنه أراد الالتفاف عليهم؟

علمتُ أنه لا يعرف الكثير من الأمور التي أريد معرفتها، تجاهلت سؤاله متسائلا:

- كيف انتهت المعركة؟

- ما بدأت لتنتهي.

ذهبتُ إليكِ يا مانيسا وقفتِ حيث تركتكِ، لم تتحركِ خطوة واحدة، كان ثباتك مختلفًا، ثباتًا في حين أن الجميع يتأرجح، وقفتُ عند باب خيمتي أنظر إليكي لتحكي عيني، ما عدت أريد الحديث، قد رحل من حفظتُ له ما حدث لي، ناديتكِ:

- مانيسا، أتدركين ما يحدث؟

- أومأتِ برأسكِ أنكِ تعي، فوضعتُ رأسي بجانبكِ، قد مات قبل أن ألقاه، قد رحل وهو يبحث عني .

- ولكنه حي بك، انشقاق روحه فيك، هو يسكن بعينيك رأيته منذ أن رأيتك .

- فرفعت رأسي مستفهما منكِ، فأكملتِ :

- إنه بداخلك، إن الذين يموتون حقًا هم أولئك الذين يرحلوا من داخلنا، نحن نموت بعد أن يموت من يحملون شيئًا من أرواحنا، الآباء لا يموتوا إلا بعد أن يموت أبنائهم، تذكر أنه مازال حي بك، حي بداخلك، إني أراه بعينيك.

*****

اليوم الأول من أيلول وصلتْ رسالة من القائد عثمان، يُنعي وفاة قائده، ويوكل أمر الجيش في عتمة إلى القائد مهاب حتى أنه كتب برسالته القائد مهاب، أشار إلى أن الوضع مؤقت إلى حين قدومه، وأن جيشًا قويًا من أربعين ألف جندي قد اجتازوا عويصلاء، أي أنهم يبعدوا عن عتمة شهرًا واحدًا، تشرين الثاني سيصلون إلى عتمة.

الرسالة أتت بخمسة فرسان من بينهم نائب قائد الجيوش وبختمه(إيراب) وكأنه كان يعلم أنها إن أرسلت بجندي واحد سيشكك بها نضال، فازدادت اشتعال النار التي لم تنطفأ يومًا، و زادت محاولات مهاب لربط الجيش حتى لا يسقط جزءًا منه، أو ينفلت بعضًا عنه، كان حين يخطب بالجنود يناديهم : (إيراب تنتظر رسائل النصر من هنا)

*****

كانت رسائل ليلى تُقرأ لمرة واحدة ثم تطوي، ظننته الانشغال، ولكنَّ الأمر لم يكن كذلك، مطلقًا، حيث يستطيع الإنسان فعل الكثير من الأمور كاعتناق الحب والتفاني في العمل، الوقت يتسع عندما نكون سعداء، رسالة تلي رسالة:

((تبًا للمغيب الذي يُغيب كل الأشياء الرائعة التي حظيتُ بها معك))

مهاب يا يامانيسا كان يدرك أن الغياب يُبقى الذكرى عالقة ومشاعرها تبيت أقوى وأشد لهفة لا تغيب، فكان يرى أن رسائل ليلى ليست صادقة لكنه لم يكن يريد أن يؤمن بما يراه، أراد أن ينكر فأغمض عينيه لكيلا يرى فغفى بنومه، رسائلها كانت متتابعة:

(أشعر حينما تخبرني بانشغالك أن شيئًا أكثر إبراقًا يصرف انتباهك عني، وأنا ذا الضوء الباهت الذي تعتكف بداخله حين يحل ظلامك، وإذ تشرق الشمس تلتهي عنه بشعاعها، أشعر بكل رسائلي أنني أكرر وأنك تهذي بأعذار مختلفة، لا أريد خطابات تحدثني عن أعبائك المختلفة، ولا أدري إن كنت قائدًا بجيوشنا أو أحد جنودها، ربما قبلت اعتذراتك المتجددة والمستمرة)

لاحظ مهاب بحجم الفجوة التي حدثت حين ظهر ظل له، ظل أكثر أناقة من ذاته، كالشهاب الذي ينير في السماء بإبراقة لامعة، يظل مراقبه مندهشًا حتى بعد اختفائه، اندهاش بضوء يمر في الليل، يرمي به الكون إلينا فينير السماء فنندهش بحطام الصخور وبقايا الرمال، فاختلاف الرداء الذي ارتداه غيَّر مبتغاها، إلا أنه كان شخصًا واحدًا يرتديه.

رغباتنا واحتياجاتنا والتمادي بكل منهما دمرنا قبل الهلاك، كانت رغبتها كأن يكون أمامك كأس من الماء في يوم شديد الحرارة، و يخبرك أحد المارة أن البئر الذي يلي الكأس ببضعة أمتار ماؤه أكثر برودة من هذا الكأس، وحين تصل إليه فتتلمسه فتجد ماؤه ليس ببارد الذي أردت فتتركه.

وأنت بجوار البئر ترى على امتداد نظرك فخار للماء وأن البئر ليس ماؤه بالزلال الذي كنت تعتقده وأن ما جعلك تتحمل مشقة الطريق للبئر وأنت عطشًا يدفعك للمضي عدة خطوات إلى أن تصل للفخار،

وحينما تصل للفخار ستجد أنك تحملتَ الكثير من أجل أن تشرب ماءًا زلال ويزيد احتياجك للماء وتعتقد أنك لو مشيت قليلًا ستجد الماء الذي يستحق المعاناة التي قمت بها، وفي نهاية الطريق ستجد أن رغبتك في أن تجد ما هو أفضل لن تنتهي بل ستزيد وستدرك أن لا شيئ يكتمل بالقدر الذي تريد، وقد تموت عطشًا لأنه بشدة البحث تُنكر المحصلات، وقد يغلبك الإحتياج كأن تشرب من الكأس وماؤه حار خوفًا من أنْ لا تجد ماء.

حين وصلتُ إلى عتمة وناداني مهاب:

- جابر.

أعاد إليَّ كل الشغف بما مضى فسألته:

- وما بال يونس؟

- ما زال يونس هنا، كلما أردتُ إخبارها تراجعتُ، خفتُ أن تحب يونس الذي اعتادته منذ البداية و أن لا ترى مهاب، خفتُ أن يحاصرها القلق لو علمت بمعاركنا وضحايها، خاصة أن الأمر ازداد حدة بعد أن فُقدت وصارت حروبنا أكثر شراسة.

وبضحكة ساخرة : لكنها تحدثني عني كثيرًا، حتى أنني كدت أغير من مهاب وكأنه غيري، لما رأيت انطفاء توهج لقائي بها.

- أنا قابلت مانيسا، في المكان الوحيد الذي تمنيت أن لا أزوره، التقيتها، التقيتُ بالشيء الذي حلمت به هناك، العالم لا ينتهي وكلما أوشك بك على الانتهاء يظهر باب للبداية مرة أخرى ، أو شيء يدفعك للنهوض، من الواضح أن الحياة لا تنتهي بنا ما دمنا أحياء.

*****

جئتُ محملًا، جئت وجاءت معي الأشياء تباعًا حتى أن كل الأشياء التي لم تستطيع أن تنتقل حملتني كفًلا منها، لا أدري كيف أنه لم يلحظ الجميع كل تلك الذكريات التي أحملها معي.

كنَّا بمرعى عتمة دخلناه بحراسة مشددة من جيوشنا، كان يحكي لي عن ما حدث بغيبتي، عامًا كاملًا قد مضى، الكثير من الأحداث قد مرت، فاستند إلى صخرة ولكنني أكملت مسيري، لم أكن أريد الوقوف، أريد معرفة ما سيحدث، وإن كان الوقت لن يرجع، أردت أن يتقدم بشكل سريع، فاستمريتُ بالمشي، فانطلق إليَّ فبادرته:

- ويحك يا مهاب، كيف استطعت أن تنسحب من جيشك، و أن تلتف وتتركهم، وأن لا تنادي فيهم اهجموا، طوال الفتره الماضية أردت أن يغيب هذا الحدث عني، ألا أتذكره؟! ومن صربلاء التي ناديتها ولم تجب؟

- هذه المعركة لم تكن لأجل جيش إيراب، لم نكن نحن المبتغى أرادوا صربلاء .

فقاطعته :

- ماذا قصدت بصربلاء؟

- حين التفت إلى الخلف، أردتُ أن أعرف من الخائن، ومَن سيتبعني، ومَن تبعني ـ ثم رفع صوته ـ كل الذين انسحبوا يومها خانوا إيراب يا يحيى فهم لا يحاربون من أجل مهاب ناديتُ صربلاء لم أقل انسحبوا ، أردت أن يستدلوا على أن بالخلف عدوًا لنا :

- ومن خانك يا مهاب؟

- خانوا إيراب، إن إيراب من تنتصر وليس مهاب، من خان فقد خان إيراب .

نادى : يحيى ـ ثم أدخلني إلى خيمته ـ سأريك ما خفي

انتبهت كثيرًا إليه، ربما تكون إجابات للكثير مما أجهله، بعد أن دخلتُ إلى خيمته فأشار إلى خلفي :

- صربلاء.

توقفت قدمي، ثم استدرت بجسدي كاملًا حيث أشار صربلاء، نملة كبيرة الحجم ذا درع أسود بعلامة كالعلامة التي يخفيها مهاب تحت سرباله، وجسد ضخم، عيناها حادة، حين رأيتها تقدمتُ إلى الخلف خطويتين، فاقتربت مني، فجثت على ركبتي فصرت أقف أمامها تمامًا:

- صربلاء.

رحبت بي :

- مرحبًا بالقائد يحيى .

نَظرت بعينايا طويلًا وبشدة تركيز ثم حدثت مهاب:

-يشبه النوردي كثيرًا.

خرجتُ من خيمته وأنا الصمت والخوف، الكراهية والانتقام، خرجت وأنا أحاول الاستيقاظ من الكابوس الذي يراودني، خرجتُ إلى المرعى وإذ بصوت نضال يستوقفني وحين لحق بي كان بوق الحرب الذي أُطلق بداخلي :

- من أين جئت يا نوردي؟

لم أجب، سؤال تلى سؤال ، فزاد:

- ويحك يا يحى، قد عزل القائد النوردي مهاب عن هجماتنا، جعله على رأس سرية التأمين بعتمة، لم يخض معارك معنا، الخلافات من بينهم كانت تزداد يومًا عن يوم، أحد الرسائل التي أرسلها النوردي إلى نضال (**لا تخبر مهاب بالأمر، سيفسد ما نفعل**) وختم النوردي على خطابه، حتى أن هذا هو خط يده، أي أنه من كتب الرسالة ولم يوكل كاتبه لكتابتها ـ زدتُ حدة ـ وسألته :

- وكيف أصبح مهاب قائدًا ؟

- خطأ والدي الذي سيؤذي الجميع، خدعهم مهاب، اكتشفه النوردي حين اختلط بنا هنا بعتمة، أما القائد عثمان فما زال يُخدع.

اعتقدتُ يا مانيسا أنه حين اكتشف صربلاء عزله ثم سألت نفسي ولما لم يحذر القائد عثمان ؟!

*****

جاء المنتصر إليّ بنظراته الساخرة ، استطاع أن يحدد لي الطريق الذي أراد أن أسير به؛ بالتركيز على نقطة واحدة، كيف كانت العلاقة بين النوردي ومهاب أثناء فقدي، النقطة التي تثير مشاعري ، النقطة التي تفقدني حفظ توازني، كان يحكيها لي بالشكل الذي رآه، وقد يكون بالشكل الذي كان يريد رؤيته.

لقد كنتُ ذا نبض ثائر، وشخصية مشوهة، مانيسا، لا تغفلي عن من استهزوا بي إذ كنت أسيرًا بينهم، إذ ذل المحارب بداخلي فثار فانتقم، وسجني ووحدتي، لا تغفلي عن كل ما مررت به قبل أن ألقاكِ، أنا كالزنك الذي خزّن طاقة الضوء في الضياء، ثم حين الظلام انطلقت الطاقة من داخله، فقد انطلقت مني طاقة الكره والغضب ، كل أمرٍ رسم وجه خفي لم أراه، اعتقد أنكِ عانيتِ منه كثيرًا.

ثم رفع صوته وبحدة عيناه التي اعهدها منذ الصغر :

- خطأك أنك استمعتَ إليه منذ البداية.

يحملون نصف رسالة أرادو أن تكتمل لتبعث إلى القائد عثمان، ليبين أمر مهاب بكل الجيش، ليقتل على مشهد من الجميع، رحبتُ كثيرًا بهذه اللحظة وتمنيتها حين كان المنتصر يصفها لي.

*****

إلى الاشقر

قائدها البشري، ستهلك إيراب عقب اتحادهم

له فورًا في مهده، لقد حاولنا فعل ذلك

لونه، قبل أن يقتل إيراب

النار به قبل أن يشعلها بإيراب

حين رأيتها استذكرتُ الرسالة التي رأيتها في إحدى كتب النوردي، الرسالة الممزقة .

*****

الثامن عشر من تشرين الثاني عزل مهاب نضال من رأس الجيش وألزمه عتمة، أي عُزل نضال من القتال، وجعلني قائد الجناح الأيمن بالجيش، أيظن نفسه القائد عثمان، بدا لي أكثر اختلافًا، المكر، الانتقام الذي لم ألحظهما طوال الفترة الماضية، المشاعر المهملة ظهرت لتنتقم، كنتُ أبغض بعض أفعالك يا مهاب أما في هذا اليوم أبغضك أنت.

*****

مهاب قائد جيش من عالم آخر، جيش من النمل قائده صربلاء، الآلاف من النمل القوي المدرب على القتال، الكثير من الخطط المتبعة لقتال الأشراس، عدتُ إلى سرجة في العشرين من تشرين الثاني لأبحث بمكتبة النوردي، الكثير من الكتب عن أساطير مختلفة، الصفحات تتبعها صفحات دون أي تفسير عن الرسوم الموجودة بداخل أوراقها، تدور الأحداث عن قتلى ومعارك، الأحداث تُظهر دائمًا الجيش النملي ملتصق، كأنهم أكثر اتحادًا، أكثرًا تفكيرًا وكأن تفكيرهم متحد، لا توجد عداءات بينهم، لأن لا أحد يريد القيادة، لا أحد يريد أن ينتصر على الآخر، لا توجد معارك بينهم لينتصروا لديهم معركة واحدة.

ولكني رأيت في الكثير من الصفحات، بل في كل الكتب التي عبرت بصفحاتها أننا نقاتل بعضنا، كما رأيتُ الكثير من الصحف تحكي عن معارك خاصة للنمل مع ذوي الوجوه المستترة، وحين رأيتُ صربلاء أو أحدًا يشبهها يقاتل بشري مثلي، أغلقتُ الكتاب فورًا، أساطير لا صدق فيها .

ثم حاولت إمساك الكتاب بأعلى رفٍ خشبي بالمكتبة، سقط الكتاب من يدي، على صفحة بها الورقة الممزقة، وصلتُ إلى ما كنتُ أبحث عنه

(إلى الوفي لوطنه والمضحي من أجله،

ظهرتْ صربلاء،

سيظهر

إذا وجدت هذا الطفل المنوه عن أوصافه، اقت

اقتله، وإن لم تستطع اجعلهم يقت

اشعل

سلامًا إلى الأشقر)

نصف الرسالة التي وجدتها، الكثير من الحروف والكلمات المتساقطة، فاين وجدها والدي؟ ومن مزقها؟ ولما احتفظ بنصفها؟

اكتمل ما نبحث عنه، بشدة انتقامي وبحسرتي، سحبتُ الورقة واحتفظتُ بها.

نظرتُ إلى الصفحتين المتقابلتين، صبي يلعب، ضوء أسود وكأن الحدث بالليل في الصفحة التالية، طفل وهو يركض وينظر إلى الخلف، استوقفتني الدمية التي سقطت من يد الطفل الدمية التي كان يحملها في الصفحة الأولى، الصفحات متتابعة، تحكي قصة ما، اختصرتُ بضع صفات من المنتصف، الدمية معلقة على بيت محترق، النار أكثر اشتعالًا بشخص ما بداخل المنزل.

عدتُ إلى الصفحة الأولى، طفل يلعب بدمية، الصفحة التالية، الدمية تطير في الهواء ثم تسقط على الأرض، انحنى ليلتقطها ومع استقامته ذُعر من شيئًا في الجهة الأخرى من النهر، ارتعب ورمى الدمية وركض إلى الخلف، لم يكمل الطريق بين الحشائش إلى منزله، قد قُتل، وبيت قد حُرق، اقتربتُ أكثر، كانت امرأة، امرأة تحترق بداخل المنزل، ثم يظهر رجل ينتقم، يهاجم ويقتل.

جيوش تُهاجم قلعة، تأكدت بعد أن قارنتها بصورة القلعة السوداء بالكتاب الذي سبقه، البيت المحروق يظهر في الصفحة الأخيرة والدمية عليه، الدمية التي رأيتها .

اكتشافات متتالية، عتمة هي الجانب الآخر للأشراس، هي جزء من الوطن الأصلي لهم، أهل عتمة لا يدخلون غريبًا إلى قريتهم، الأشراس لا يغيروا هيئاتهم، كذب الأكثمي وتلاعب بنا، كذب أهل عتمة حين أتينا، لم يذكروا الحقيقة كاملة، أسقطوا كلمات من بين حكاياتهم، قريتهم تدعى شمسة، وحين قُتل بارع أُسميت عتمة، كنَّا نظن أن بارع قد قُتل بالأمس القريب ولكنه أول من قتله الأشراس، أي منذ زمن بعيد، بيته خُلِف بلا أحد يسكنه، ودميته معلقة بباب داره، الدمية التي يتلاعب بها الهواء، فكرت كم عامًا مرَّعليها ليظل الحبل الذي يربطها متماسك؟!

ظلت ذكراه تتوالى بارع الصبي الذي قُتل، ثمَّ حرق منزله تابعتُ الصفحات، الكثير من الحكايات، أغلقتُ الكتاب وحملته معي، قد أضللتنا يا أكثمي وأيقظتُ البيضاء وعدتُ إلى عتمة.

كل شيء كان يشغلني وأفكر به، وأتيتِ يا مانيسا بذكراكِ فتنتشلني.

احتفظتُ بالكتاب كله و أسرعتُ عائدًا إليكي يا عزيزتي، أنتِ الحقيقة الوحيدة التي اعتقدتُ بوجودها، وكنتُ بعودتي إذا تفقد كل خِلٍ خليله دعوت الله أن طمئني على خلي، فسبحان من أرسى السفينة في المرسى فلا المياه تجريها ولا الأمواج تُدميها، وسبحان من أسكن الفؤاد في الجسد والموج في بحر الشوق يرتطم، أعان الله قلبًا أنتِ ساكنته برحمة ومنة بلقياكِ.

لقد كنتِ يا عزيزتي الجانب المضيء الذي تمنيتُ أن لا ينطفئ، لم أكن أعلم أنني من سيطفئه بيديا العاصيتان.

*****

الخامس من كانون الأول، أتت صربلاء تخاطبني، أردتُ أن أسحب سيفي القوي المصنوع برادغ وأمزقها ،أو أن أنفذ رمحي بداخل درعها الأسود، لكن حاولت ان أستجمع هدوئي كي لا تلحظ وتتنبه، كلما حاولت الأقتراب أبتعد يتحرك جسدي عنها دون أن أشعر بحركته، ثم اختارت مجلسي فجلست به فزدتُ احتراقًا، فَفزعت وتركته, وجلستْ بجواره.

الأمر أسوء حين تُفهم مشاعرك دون أن تفصح عنها وخاصة إذا كانت ذي مكر، وكره، ثم نادتني:

- يحيى أين كنت عام من الغيبة؟

تجاهلتُ السؤال المطروح وسألتها:

- هل كان القائد يعلم بأمرك؟

وقفت ثم تنفست بشكل عميق وبابتسامة خفيفة وصوت هادئ:

- القائد النوردي، القائد الذي لا انشقاق في جناحه، كان الجميع يحبه ــ ثم نظرت إليّ ــ حتى الأشراس أظهروا الاحترام له كثيرًا، كان النوردي قائدي، وملهمي ، ثم أعادت سؤالها :

- أين كنت عامًا من الغيبة؟

- داخل قلاعهم .

وبثقة منها:

- لم تؤسر يومًا واحدًا .

ألزمتُ جسدي السكون حتى أسيطر على ربكتي وإن شعرت بها، كان عليَّ أن لا أدعها تشعر بي ، فأكملت :

- بحثتُ عنك بكل مكان ولم أجدك، حتى إنني عامًا كاملًا أذهب وأئيب بقلاعهم فلا أراك، عامًا يبحثون في الاتجاه الخاطئ، حين حاولتُ استشعار وجودك، كنتَ في الاتجاه المعاكس، في أحد قلاع كنيريتو.

فأعدتها:

- كنيريتو ـ في محاولة لفهم معناها ـ

وهي تكمل وكأنها تقرأ ما يراود عقلي، في الحقيقة هي تفعل :

- كنيريتو تعني الخيانة، أُطلقت على قلاعها أي خائنون، كل الذين ذهبوا لم يعودوا، الطريق لا يسمح أن تسير باتجاهين، اتجاه واحد تسلكه وإن عدت من خلاله يبتلعك الدخان، فكيف عدتَ يا يحيى؟ لولا أن النوردي أراه بعينيك لأيقنت أنك شرسي لا محال.

- شرسي ! أرئيتني اختفيتُ هناك وأتيتُ إلى هنا، لقد جئت بعد أن عبرت الصحراء .

قاطعتني:

- الأشراس وحدهم من يعلموا بطريق الخروج من كنيريتو، حتى نحن لم نعرف الطريق قط .

- أخبرتني به مانيسا.

- من مانيسا؟! الشرسية تلك من جلبتها معك.

في بداية الأمر أنكرتُ ما قالت عنكِ، تقول ما يُقال عن مهاب، ثم أحنيتُ رأسي وقد صدقوا، نعم كنتُ أعلم بشيء مختلف بكِ، ثم ضحكتُ بسخرية مني حين أنني أصدق ما قالت صربلاء، لذا تمسكتي حتى لا تضيعين مع الضباب.

شعرتُ باختلافك منذ الوهلة الأولى ولكن لم أكن أتمكن من إبعادك، وحين جئتُ بك إلى عتمة ، لقد كنت أعلم ولكنني أحببتكِ، من قال أن الحب أعمى، إن للحب عيون يرى بها ما لا يراه ذوي الأبصار ولكن يتغافل، الحب متغافل عن المحب، ولكن حين وقفت لي الحقيقة ورأيتها نحيتُ حبي عنكِ وواجهتُكِ، غضبي إذ إن الأشراس قتلوا حلمي مرتين، حين قتلوا والدي، وحين أنجابوكِ يا مانيسا ولم يدعوكِ لربما إيريبيًا أنجبكِ.

فالحب ، مادة لا يمكن إثباتها أو نفيها، دليل لا يشير إلى معرفة، كرائحة العطر يمكن استشعارها دون أن تتلمسها أو تمسك بها، متضادات متشابة أو ذات نفس المعنى، أو له وهلة لا يمكن مغادرتها، الحب قد يكون كل شيء وقد يكون لا شيء.

خرجتُ إلى نضال وأخذتُ شق الرسالة التي معه وأكملتها

(إلى الوفي لوطنه والمضحي من أجله ،إلى الاشقر

ظهرتْ صربلاء،سيظهر قائدها البشري، ستهلك إيراب عقب اتحادهم

إذا وجدت هذا الطفل المنوه عن أوصافه ، أقتله فورًا في مهده، لقد حاولنا

اقتله، وإن لم تستطع اجعلهم يقتلونه، قبل أن تسقط إيراب

أشعل النار به قبل أن يشعلها بإيراب

سلاما إلى الأشقر)

والذي بدى لي حرف سقط، ، ما أرادت أن تلتئم حروفها، وكأن كل ما مررت به، خدعة السجن التي عثرتني به ليال، كل الأحداث التي أغمضتُ عيني عنها لأتمسك بها كان هذا وذاك يشير بإصبع واحد انتبه، وإن سقطت نقطة من على حرفها لا تمررها وقف .

فاعتبرت لأن كل غفلة غفلتها أتت بمنكرًا، كل سهوة سهوتها عثرتني، سقطت الهمزة من على اسم الأشقر بشق الرسالة التي يحملها نضال، أنتِ شرسية، ومهاب لم يخض أي معركة مع والدي ويقود جيش من النمل، ورسالة المنتصر ونضال كاذبة، كذب الجميع وفضحوا أنفسهم في ليلة واحدة، وياليتهم تحزوّوا فتقل خيبتي، أو ربما كان ذلك أفضل.

*****

ذهبتُ إلى خيمتي حيث المكان الأخير الذي تركتكِ به، وعلى سهوة منك نزعتُ ستر وجهكِ، لتظهرِ لي بوجه كامل، في أول وهلة رأيته مختلف عن النصف الآخر في الحقيقة كان.... لا أريد ان انطقها لم أستطع تحمل المفاجأة.

اقتربتُ منكِ وأمسكتُ ذراعكِ بقوة :

- ولما أتيتِ إلى هنا؟ كان عليك أن تنفلتي مني فور تحررنا، كان عليكِ أن تبتعدِ عني وأن تتركيني وإن تمسكتُ بكي لا تبالي بي وتهجريني.

- كنتُ الثقب المنير وسط الظلام.

بدأتُ بابعادكِ عني، أردتكي أن تتلاشى أن تختفي أنكرتُكِ على نفسي.

ـ مختلفة عنهم، كيف ذلك أخبريني؟

وأنتِ تحاولين الأفلات من يدي :

ـ أنا لا أنتمي إلى فئة منفردة، أنا اتحاد بينهم، والدي كانت تمامًا وأمي شرسية .

اتحاد غريبان ستهلك إيراب على إثرها، كل الأمور أخطأت بفهمها، لأنني اقتصرت بتفسيرها على حد معرفتي مع أنَّ الآفاق واسعة، نظراتنا القاصرة تقيد فهمنا، كأن تسير في ظلمة الليل على ضوء شمعة في أرض لا تعرفها، لقد أوقفتُ عقلي وسط زنزانة ثم أغلقتها، وقيدته ليبقى بمنتصفها، لأني أدرك أني لو تركته يجمح في هذا الفضاء قد يضيع و يضيعني، كان عليَّ أن أروده، لكنني لم أفعل، أو بالأحرى عجزت عن ترويده، لما ظننتُ الغريبان مهاب وصفية، وبعدها ظننته مهاب وصربلاء، وإذ اتحد شرسية ببشري وكان هذا اتحاد الغريبان عنَّا.

وبالرغم من اختلافكِ إلى أنني ما استطعت أن أرحل منذ البداية أو أتركك تذهبين، تركتكِ ورحلتِ مضى يومان ثم بعثتِ إليَّ برسالة :

(أيمكنني الاطمئنان عليك؟ لا أدري إن كنت تعلم أن هذا الاختفاء المفاجئ يقلقني، هذه الصفة التي تجيد ممارستها معي، أنت تقلقني بشكل مستمر يا يحيى، من الأشياء التي أخافها بل أسوء ما أخافه أننا لا نعلم أي لحظة هي اللحظة الأخيرة، فاسأل بين الحين والآخر لعل أمرًا قد طرأ، واذكرني في غفلة مني لعل حديث نفسك يستبق إليَّ فيخبرني أني قد سهيت وغيري بذكري قد أنس

العاشر من كانون الأول، الثانية بمنتصف الليل

إلى يحيى

من التي أحببتك كثيرًا، مانيسا)

مانيسا تركتُ رسالتك، لم أكن حينها مستعد لأن أتحمل صرباء ومن بعدها أنتِ، مانيسا أنتِ من قوم يقاتلوننا ونقاتلهم وإن كان نصفك فقط، رسائلك كانت متوالية وسريعة، أردتُ فقط أن تمنحيني فرصة للرد عليكِ، لم تمنحيني الوقت الكافي لاستعاب الأحداث المتوالية السريعة التي حدثت، أنتِ محقة وأنا لا ألومك يا حبيبتي، لم يكن الوقت ليتسع كل هذا التفكير، لم يتسع الوقت لي، لحقت رسالتكِ رسالة:

(كنت عازمة أن لا أحادثك، وأن لا أرسل لك رسائلي التي أبعث بها الواحدة خلف أخراها، وأن لا أتذكرك أبدًا، أفعالك الأخيرة تؤرقني، ولكني أبدا لم أتمنى لك إلا روعة كروعتك، وبالرغم من حزني الكبير منك، كسرتُ كل العهود التي عاهدتُ بها نفسي وحطمتُ مواثيقها،و ها أنا أسألك كيف حالك يا يحيى؟

العاشر من كانون الأول، الثالثه قبل غروب الشمس

إلى يحيى،

من التي أحبتك كثيرًا، مانيسا)

ثم انقطعتْ رسائلك فاحترقت بواخري، ثم من بعدها رسالة هدأت النار التي اشتعلت بسفني الراسية ، لم تطفئها المياه وأطفأتها رسالتك (العين مغلقة والقلب يأبى أن ينام، فنبئ عشيرتك أنني أسعد بلقياك، لعلك حين تحدثهم تذكرني ولعلك حين تذكرني تشتاق، وإني على علم بأن شوقي بقلبك مدثر فخبئ ما شئت فإن للمحبين أسرار، فيا سعدى الشوق حين يجمع بيننا حتى يأمر الله بالوصال، فلا خير إلا في الوصال بيننا ولا خيرًا إلا بلقياك،

العشرون من كانون الأول، بأول الليل

إلى يحيى

من التي أحببتك كثيرًا، مانيسا)

كل رسائلكِ دلت أنكِ ما نسيتيني وأن كل وقت تذكريني، جعلتني أفكر ،هل لنا أنا نغادر متى شئنا وأن نعد متى أحببنا؟ هل تمكننا مشاعر من حولنا بالتخلي والتمسك متى أردنا؟ هل تنام القلوب وتستيقظ كما أننا؟ هل الأشياء بالقدر الذي نريد تأتي إلينا؟ أم أنَّ حسابتنا غير مجدية ولا تشفع عندهم؟ حسابتنا خاطئة حين نحسبها متفردين دونهم

لماذا يعصف بنا الحنين بالمنتصف، ألم نكن أقوياء حين نفعل ما يدمي قلوبهم؟ لماذا نجعل من قلوب محبينا درعًا نحتمي به، وقد خُلقت القلوب خلف درع يحميها؟!

*****

القلعة السوداء، أو قلعة الشر الأسود، قلعة الجحيم، القلعة التي لا باب لها، قلعة في أسفل الأرض حولها ماء غائر، ماء أسود، يُقال أنها الدماء السوداء تحيط بها ، في الجزء السفلي منها يدفن الموتى ، محصنة، كبيرة، لم ولن نحاول الإقتراب منها، وإن هُزم الأشراس ستبقى مُغَلقة، في كتب والدي رأيت هذه القلعة، قضبان في كل ركن منها، كل صورها تدل أنَّ من رسمها كان ينظر إليها من زاوية أو ركن معين، كل صورها إسقاط من أعلى، لا مخارج فيها.

الواحد والعشرين من كانون الأول جاءني مهاب:

- اكتب رسالة إلى بني ساعد ـ قبيلة ليلى ـ اكتب لهم أن مهاب يريد الزواج من ليلى.

فسألته بتعجب :

- ولما هذا الحزن بعينيك؟!

ثم استدركتُ مهاب يريد الزواج من ليلى وازداد تعجبي فزدت سؤالي الأول :

- وماذا عن يونس؟

ربط على كتفي قائلًا :

- اكتب لهم ورحل .

وحين وصل خبر ترحيب القبيلة به، شعر أن كل المياه التي سقى بها كانت ضحلة، شعر برخاوة الأرض التي ظن أنه يسير عليها، وأن كل سعادة كان يتشبس بها أفلتته، شعر بضيق المتسع.

وشعرتُ أنا بفرحة تسري في دمي، هُزم مهاب و تخلى الجميع عنه، لم يبقى له سوى صربلاء، حذرته من الذهاب إلى ليلى ليراها، نهيته أن يودعها، خفتُ أن يجمع الحب بينهما مرة أخرى، لم أكن صديقًا ناصحًا له، لكنه أبى وذهب إليها، ولما أتى سألته ماذا أخبرتها:

- حين التقيتها، رفعتُ يدي لألوح لها أن تقترب وما عسايا إلا أن أشرتُ لها وداعًا، ولكنها اقتربت ودنت إليَ وشغلتُ بها عن العالم، وأحببتُ شعوري وإن كان كاذبًا، ثم أنكرته علي فلا أريد سرابًا وإن كنت مُلتاح ــ شديد العطش ــ لا أريد الأشياء التي لا جذور لها، وجلسنا وكلًا منا انشغل بما به عن الآخر ولعلمي بقلة إرادتي أمامها كتبت لها رسالتي.

أمسكتُ الرسالة من يده وفتحتها :

(ولأننا لا نستغني عن الأشياء إلا باستبدالها، ولا نرفع أقدامنا لنخطو بها إلا ونحن ندركِ أنها ستحل على يابسة، ولو أنها ستهوى مارفعنها مطلقًا، ولو علقنا بموضعنا الكثير من الزمن، لا أدري أي شيء استحق استبدالي، هل كان حقا شيئًا يستحق ما استبدلتي يونس لأجله؟!)

ثم أغلقتها وناولتها له :

- ولما احتفظت بها؟

نكث رأسه قائلا :

- إذا عاتبت ذي نفس يعز عليك فراقها وأبت، فما كان لنفسك عندها مقام، وكيف العتاب إذ ذا النفس أظهرت رحيلها وهانت عليها كل الوداد، تشيخ النفوس بقطع حبل الود بخلها وتطيب بالوصال، وأنا ذا الجدار المتين بوهنه إن رحل عنه المحتمون به تصدَّع، كل الرمال إذا الرياح أتت رحلت وتركت أرضها عراء، وكل امرئ إذا أقبل بالجود تملك ذوي الفؤاد الذي يطمع بالمزيد، قل للمشفعين بحبهم أني قد هنت عليها وما شفع لي حب ولا وصال .

ثم رفع رأسه إلي قائلًا :

- يرحب بنا دائمًا عندما نكون فسلامًا على من يرون أرواحنا من خلف الأسدلة، سلامًا على من يرحبون بنا عندما لا نكون، ليت لنا أجنحة يا يحيى حتى إذا جفى أهل الأرض طرنا بها في السماء .

*****

الثاني عشر من شباط خطط مهاب للثأر من الأشراس في معركة لسيطرة الجيش على حصن (إيباك) الذي يلي عتمة بأيام ، جهزنا للمعركة بشكل رائع، حصن إيباك يعد من أقوى الحصون، في الأصل هو حصن يتبع عتمة، الجيش مقسم، المعركة على غفلة منهم، حفرنا نفقًا رئيسيًا وثلاث أنفاق متفرعة منه كل نفق يؤدي إلى اتجاه مختلف، النفق الرئسي، خمس أمتار تحت الأرض مثبتة جوانبها، جيش صربلاء ساعدوا حفاري الأنفاق ، النفق الرئسي هو النفق الوحيد الممتد إلى داخل الحصن، ممتد إلى قلب إيباك.

الحصار بدأ عند شروق شمس العاشر من آذار ، حصار للبوابات الخلفية للحصن، المكان الوحيد الذي يصل إليه النفق الفرعي الأول عدد الجنود المحاصرين للحصن خمسة آلاف عدد قليل لا يكفي للتصدي لحصن كامل ، صباح ليلة العشرين من آذار.

بدأ الهجوم من الجنود المحاصرين، انشغل الأشراس في قتال القلة المتواجدة خارج الحصن، وبدأنا بالتوغل، كان مهاب يتجه بخمس وعشرين ألف من الجنود إلى داخل الحصن وتركنا سرايا التأمين لرد أي هجمة مضادة ،وأنا علي رأس عشرة آلاف من الجنود لاقتحام البوابات الأمامية.

الخطة أن نلتقي جميعًا داخل الحصن، بمجرد دخولنا إلى الداخل، هُزم الأشراس وانتصرنا، أو أننا اعتقدنا ذلك، كان الانتصار الوحيد في المعركة أننا مكثنا في إيباك عدة أشهر، اختفى الأشراس جميعهم، وقتل بعض من جنودنا عدد لا يتجاوز المئة جندي.

الغلطة التي أرتكبت والتي حذرت منها صربلاء اعتقادنا بالنصر، يومها علمتُ أن الأشراس لا يختفون بالمعنى الذي كنتُ أحسبه، السرعة التي ينطلقون بها وكأنهم يدخلون إلى الظلام، إلى بقعة زمنية مختلفة ثم يعودوا إلينا .

*****

رسائل الانتصار توالت إلى إيراب، وأتت إليَّ رسالتي، الرسالة الاستثنائية التي أُرسلت في زمن الحروب، رسالة الانتصار التي تنفي كل معاني النصر، كانت الرسالة التي جرمتني، الرسالة التي بعثت بروحي إلى الجحيم :

(حين انتصرتم لم أكن أنتظر رسالة خاصة للاطمئنان عليَّ، حيث لم يكن لك متسع من الوقت لأن تقرأ رسالة سلام؛ لذا لن أرسلها، كنت تقتلهم لم تكن تقاتل، لن تسمع صوت هتافي لك حين يهتف لك الجميع، فلن أهتف لك معهم، يقال أن الرسائل التي لم ترسل رسائل يصيبها لعنة الانتظار أما رسالتي تلك فأصابها الخزي الذي تعلمته منك،

إلى يحيى، العشرين من آذار، الرابعة عصرًا، مانيسا)

نحن من نحدد لمن حولنا الوجهة التي نريدها لهم، نفتح أبوابًا ونغلق أخرى عليهم، نمد إليهم أيدينا أو نسحبها.

تعمدتُ أن يرى مهاب خطابتك، أن يرى كيف تتمسكين بي مع أني غير مبالي بكِ، أردتُ أن يُحرق قلبه كما فعل مع أبي، نعم تعمدت إيلامه .

كنتُ خير صديق شر عدو إذ عاديته، أردتُ أن أحرق قلبك أنتي أيضًا ، لا أعلم أردتُ فقط أن يشعر الجميع بمشاعري التي خلفتها غربتي عامًا، وبخزي إذ عودتي، ولم يصدق الجميع معي ، كذبوا، كلٌ كذب لتظهر الحقيقة كما يرى، أو كما يريد أن يرى.

في خيمة مهاب صربلاء لم تهدأ منذ أن اعتقدنا أننا انتصرنا:

- لم تنتصر يا مهاب سيثأرون منك.

ثم قاطعها مهاب

- انظري، لقد تراجعوا، لم نقاتل.

- لم نقاتل ، إذًا لم نفعل ، دون معركة لا انتصار ، جهز جنودك للحرب الحقيقية.

كنتُ أجلس أنا وأرخي جسدي على أريكة بخيمته، أتابع ما يقال غير مبالي أنظر إليهم وكأن لا علاقة بي بالأمر، أو أني أُشاهد مسرحية هزلية في إحدى ساحات العروض بسرجة، أردتُ أن يزداد الخلاف بينهما، ليسقط مهاب منفردًا بيدي من دونها.

في حين أن ينظر مهاب إليَّ وأنظر إليه، كنتُ أنا أنظر إلى الذي كان يُفسد خطط والدي ، أنظر إلى الوحيد الذي استثناه النوردي من القتال.

ثم نظر إلى الخريطة التي أمامه وأشار إلى قرية (سندور) القرية التي تلي حصن إيباك أراد استرجاعها، بينما أنا أشرتُ بطرف عيني إلى النصف الأخر من الخريطة فنظرت إليَّ صربلاء:

- كنتور .

فأكمل مهاب :

- كنتور وإيربس وبصرا وغيرهم، سنمحو الأشراس تمامًا.

وأنا أردتُ كنيتور بالتحديد.

*****

منتصف الليل الأول من نيسان، هجم الأشراس على المرعى ، اجتازوا الحصن ووصلوا إلى عتمة قبل وصول النبأ إلينا، علي حدود إيباك قتلوا اثني عشر جندي من الجنود الذين شعروا بنشوة النصر ، كان انهزام لنا أن يعبروا إيباك، ثم بدأنا بتأمين عتمة نفسها بعد أن فقدنا المرعى، حالة الانتصار التي كنّا بها أفقدتنا الكثير، أو بشكل أكثر دقة، الاستمرار في تلقي شعور الإنتصار شغلنا عن الكثير.

*****

صبيحة نهار الأول من آذار، كانت الشمس مشرقة ، جاءت صربلاء محذرة مهاب أن الأشراس قد أعدوا جيشًا قويًا للاستلاء على عتمة، جنودنا حوالي أربعين ألف جندي بالسريا غير كافين أمام الأشراس إذ قرروا الهجوم ، الهجوم بمجرد أن تغيب الشمس أي ليلًا، وضع مهاب خطط للرامين، للمشاه، للفرسان لكل جندي بالجيش وضع خطة له، أي أنه وضع حوالي أربعين ألف خطة، الأنفاق إذا لم نمر منها فلتسقط.

أمر صربلاء بجيشها إزالة المثبتات التي تثبت الأنفاق ليدفن الأشراس في الأسفل، وأمر بترحيل أهل عتمة حتى ، لا يكن في الخلف من يحميه الجيش، نصبح أحرارً إذا حاربنا،و إذا لم ننتصر فلا موت لأهل عتمة.

*****

(يحيى أخبرتني بالأمس شيئًا من القول وأدسست كلماتك عن كذبٍ غير مقترف مني، وخديعة لم تساورني، أعلم أني نحيتُ شيئًا من الحقيقة إليَّ قليلًا حتى لا تتعثر بها، ولكني ما أخطأتُ يومًا أو قتلتُ بشرًا، حتى أن الحقائق التي أُخبرنا بها كانت كالتي أسمعها هنا، تذكر أن اختبائنا كان يومًا من البشر، ومع ذلك تشعر بالآسى تجاهي، ولكن على هذا الحزن أن ينضب، أم أنك تسقط المتمسكين بك والمتكؤون عليك؟!

إلى يحيى

العشرين من آذار

من التي أحببتك كثيرًا، ماليسا)

حينما تُرسلي رسالتك إليَّ، كنتُ أقرؤها ليلًا في خيمتي، أستند على العرق الخشبي للخيمة وأقرب الشمعة لتنير لي، كنتُ على يقين أن الشمعة لن تُحرق الرسالة أوتُفسدها فالحب لا يحترق، الحب لا يفنى ولا ينتهي، يظهر في الليل والحرب والشتاء، لا يطفئه ماء أو تحرقه نار لا يموت، يُزهر أينما زُرع، يمشي ويطير ويسبح، يُكيف نفسه أينما وجد، الحب لا يظهر إلا خلال اللحظات الأخيرة، الفاصلة، الحرجة، حين يُملي عليك ماذا تفعل، ذهب مهاب ليأخذ ليلى، طرق الباب وفُتح المنزل فابتدأتُ أنا مخاطب الرجل :

- جئنا لاصطحابكم إلى خارج عتمة .

- نظر إلينا أباها ثم أشار إلى الخارج.

- حين تعود ليلى سنرحل جميعًا فقاطعه مهاب.

- وأين ذهبت ليلى؟

همست أختها ربيعه وهي تنظر تغلى مهاب :

- يونس ! ألم تلتقيك ؟!

اقترب مهاب منها فزعا أين ذهبت ليلي؟

- ذهبت تبحث عنك.

كم أدركت الآن أن الأسلحة أضعف ما تقتل به إنسانًا وأن مشاعرنا قاتلة، وأن الدموع التي تنزل من ألم حارقة تغير ملامحنا

انطلق مهاب أسرعتُ خلفه، ليثٌ في الأمام والبيضاء تلحقه، انطلقنا إلى المرعى، كل الزروع حُرقت، والمتواجدون قتلى، والغائبون أسرى، وكأن العالم لكم قلبه، أسرعنا إلى التلة لكن لا أحد، كنتُ أبكي فراقها إذ كان هو يمت.

نعم، بكيت فراق ليلى، بكيتُ أن تغادر ولا تعود، تمنيتُ أن يكون كابوسًا يراودني أو حفنة أفكار تذهبُ وتئيبُ تملأ انتقامي؛ لأن ليلى هي الوجه الآخر لكِ يا مانيسا، أنتِ الحب وكل حبيب ينتمي إليكِ، هي الفقد الذي أخاف أن يمسني، حينما فُقدت ليلى، أحدًا بداخلي ينادي عليكِ، كأنني اشفقت أن أفقد شيئًا أحببته، رغم أن وعي جاء متأخرًا ، إلا أن الجزء يكمل شيئًا من الكل ، وإن لم أرجو شيئًا منه، شعرتُ يومها بالفقد يا مانيسا، فقد شيئًا ما استطعتُ إدراكه .

اتجه مهاب إلى التلة، انطلق بجواده ليث إلى ليلى، ولكن لم يلتقيها، لم تكن ليلى هناك، سرية كاملة تبحث عن ليلى في عتمة وبجوارها ، في حين أن صربلاء أكدت أن الأشراس التقوا بليلى أولًا، أي أن ليلى ماتت أو إذا فكرنا بشكل أكثر شفقة لقلب مهاب فليلى هناك وليست هنا.

الخطاب الأخير الذي وجهته إلى مهاب، كانت تحتفظ به ربيعة شقيقتها :

(إلى القائد مهاب :

يا ليتني ادركت هذا الشعور من قبل، شعور يضاهي حب المحبين في كل الأزمنة، كل ما لم أستطع تفسيره قبل ذلك اليوم، اليوم أتقنه فهمًا، حين يصبح الوقت ضيقًا ستفعل مباشرة ما يمليه عليك قلبك، ستنجرف نحو الأشياء المهمة بالنسبة لك دون أي نوع من التفكير ، في ضيق الوقت نرى نور مشاعرنا يضيء لنا الدروب التي نريد السير فيها سأذهب إلى يونس، هذا ما أردته)

الحادي عشر من تموز، ابتدأت الحرب في الظهيرة، قاتل الجيش بثأر من نوع آخر، ثأر للجنود الموتى، ثأر للنصر الذي أُدعيَّ وولى، كلٌ يثأر لما بداخله.

يومها وكأني أقاتل من قتل النوردي نفسه، استعدنا مرعى عتمة وما حوله، فبمجرد أن تشعري يا مانيسا أن الأشياء من حولك تستطيعين فعلها، أو أنها أشياء عادية، ستجدين نفسكِ تقطعين المسافات التي تخشين البدأ فيها، كل شيء تستطيعين فعله بمجرد أن يتنحى بداخلك استحالة أن لا يكون، الجميع يؤمن ولكن أن تفعلي ما تؤمنين به.

*****

أخاف الكهوف المظلمة في ذاكرتي و أحشاها، أخشى حضورها، أخشى يا مانيسا أن تمرر الأمور كما حدثت دون أن يتغير شيئًا منها، أخاف الأشياء التي وأدتها حية وما استطعتُ مواجهتها، أخاف كثيرًا مشاعري الرمدة، مشاعري الراكدة والتي تنتظر سقوطي لتهجم عليَّ وتثأر مني، أخاف أنا.

أخاف أن أخرج إليَّ وأعاتبني على هذا وذاك، يرهبني كل كذبة كذبتها، وكل خطيئة اقترفتها، كل جريمة ارتكبتها، كل ذنب اذنبته ، وكل شرسي قتلته أن يقف ويسألني، أنا أكره نفسي وأكره ضعفها وأمقت معاصيها وفسوقها وآثامها.

أخاف حُضورك وأخشى اصطدام عينيكِ بعينايا، الغضب واليأس هما البابان اللذان يفتحا إلى الهاوية، وأنا غضبتُ، غضبتُ كثيرًا ويئستُ يا مانيسا، فأن تصبحين ثمنًا، أن تسحقين أرضًا، أن تُظلمي تشيخ مشاعرك وتتحلد، يخرج منكِ شخص آخر يقاضي الحب فيكِ.

أنا لا أبرر أخطائي أو أريد شيئًا من الشفقة تجاهي، لا يا مانيشا أنا فقط أفتح لكِ الآفاق المغلقة بداخلي، خلال العام الذي قضيته كانت المقايضات التي تولى الشيطان أمرها، حين ظهر الشيطان من بين عيني انتهى عهد السلامً بداخلي، أنا فعلتُ الكثير من الأخطاء التي لا أستطيع تجاوزها.

*****

أذكرك وأنت تقفين تنظرين إلى الجيش حين جاء، تبحثين عني، وسط الباحثين عن ذويهم، متلازمة السلم الحرب والحب والموت ، متلازمة تأبى أن لا تتحد، وصلات متتالية كشروق يتبعه غروب ، وانعكاس للظلال يليه انكسار، وظهور الهلال ومن ثم اكتماله، وصلات تتبع بعضها بعضًا.

أشقتني نظرات المنتظرين العائدين من الحرب، أردتُ أن أقول للثاقلات والميتمين لا لقاء اليوم بهم ولا غدا، دمتم صابرين بنصرهم فلا اليوم فرح وصفيق، سلام على القبور وأصحابها، سلام على المنتصرين بموتهم.

استشعرتيني من بينهم، جئتِ إليَّ و أنا الباحث عنكِ ، طرف ردائك يفتح جرحي المكنون، وأحليتي سترة وجهك، فدفعتك ، لا أدري كيف فعلت ذلك.

نظرتِ إليَّ لم تكوني غاضبة بل راحلها:

- أنت حلمي مشوه، أنت حلمي المبتور وجهه، أنت حلمي الذي تمنيت أن يموت أو يضيع مبكرًا، كنت ثقبًا فقط، ثقب غير منير، ارحل ولا تعود.

في هذا اليوم نظرتُ إلى كل علامة من الحرب ما زلتُ أراها في جسدي، البعض منها ذهب شيئًا والبعض الآخر تلاشى، إلا تلك الضربة التي اخترق فيها السيف جسدي، قبل عشرون عامًا، كنَّا نتدرب، نحارب بعضنا بعضًا، كان خطأ مهاب في توجيه سيفه إليَّ.

أَحدث علامة قوية، ثابتة، وبالرغم من مرور الوقت الكثير إلا أنها لم تتلاشى، فالسيف كان قريب ، و كنت في غفلة لثقتي في من يحمله، وهذا ما فعلته بكِ.

*****

العشرون من تموز، أُوقفتُ الحروب وكأننا بهدنة، وهدأ مهاب كأن الأعاصير بداخله تحولت إلى مناخ جيد، بدت الأمور غريبة، رصدتُ أمرًا قد حدث، امرأة أتت بخطاب إلى مهاب ثم انطلقت بسرعة عالية، شرسية هي.

بمجرد رؤيتي هذا انطلقت إلى نضال، أخبره بما رأيت، ولكن لم أستطيع أن أوشي به لم أستطع ، قلصتُ كلماتي الموجهة إل نضال:

- متى سيعزل مهاب من فوق رؤسنا؟

- قريبًا.

بنظرة ماكرة واستهزاء في القول:

- اقتله يا يحيى.

- ويحيك يا نضال، أنقتل بعضنا بعضًا؟ ! أردتُ أن يعزل، أن يبتعد، أن يعاقب، لا أريده بطلًا بعد موته، أريده عدوًا.

- دعابة يا يحيى، مجرد دعابة

ثم قال لي على وجه جدية :

- الخائن يُقتل:

سكتُ طويلًا و طوي الحديث بيننا، حتى جاء المنتصر وسائد وخالد جاء الجميع، لم يذكروا مهاب في جلستهم على غير العادة، كانت أحاديثهم متفرقة بين هنا وهناك، ما لاحظته أنهم يخاطبون نضال ينعتونه بالقطب ـ أي الحاكم ـ بعد انتهاء جلستنا عدتُ إلى خيمتي التي خلفتيها مظلمة، باردَة ، خيمة بائسة بعد أن رحلتي.

*****

صربلاء الوفية إلى مهاب، خرجت إليَّ فأخرجت سيفي إليها، وضعته ملاصقًا لرقبتها:

- خائن، يقاتل الأشراس نهارًا ويلتقي بهم ليلًا.

- إذًا أنت خائن حين خفضت سيفك عن الشرسية وكنت تستطيع قتلها، أتذكر؟

رفعت صوتها وأزاحت سيفي الذي بدى انخفاضه واضحًا:

- خائن حين تخطط لقتل قائدك، خائن حين أتيت بشرسية إلى عتمة، لما تركك الأشراس حين أُسرت؟ إذا تمادى نضال فليقتل.

- تجاوزتي يا صربلاء، احذري أن تلفظي كلمات تقتلك.

ثم دخل مهاب إلى خيمتي دون أن يمهلنا فرصة لخلق حديث آخر، دخل والاستبشار بالغد في عينيه ، دخل وكل ما مات به قد حيا:

- ليلى هناك يايحي ليلى ما زالت تحيا، ليلى تتنفس، راسلتني.

إذًا الشرسية كانت تحمل رسالة ليلى، رسالة أحيت مهاب وأشرقت الشمس بداخله، رسالة وهبته الحياة،

(إلى قائدي وقائد جيوش إيراب، إلى المقاتل مهاب، أنت لا تدرك مدى الضرر الذي لحق بي بالمرعى، ثم إن الأشياء السيئة كثيرًا ما لا أستطع التحدث عنها، لا أستطيع سرد الأحداث كما أريد أن أقولها أنا، وتريد أن تسمعها أنت، فقط أنا أطلب أن تساعدني.....ساعدني يا مهاب

حبيبتك ليلى)

*****

التقيتُ المنتصر وأنا أصنع رأس رماحي وأعرضها للنار لتزيد من صلابة الرمح، جلس المنتصر بجانبي يلعب بالحجر الذي أشحذ به رمحي، ويجمع لي الحبال المتناثرة حولي:

- أتذكر ليال الصيد يا يحيى؟ كنت دائمًا تصيد الفهود برمحك، تتعارك معي حين أثير ضوضاء من حولك.

ثم ترك الرمح وأشار بيديه للقتال بالعصا الطويلة، تشابكنا وكنّا نلعب ونتذكر الأيام التي خلت، في هذا اليوم ذكرنا الجميع، كل الأحبة، كل الأحداث التي أضحكتنا، وكل الأمور التي بكيناها.

ثم أخذ رمح من الرماح التي أعددتها لكي يصطاد غزالًا للعشاء، اتفقنا أننا سنستقل اليوم وأصدقاء سرجة عن الجيش.

*****

وها فصل الشتاء أصابني، مطره أغرق يابسي، انشقاقات بالقلب لا التئام لها، ليلًا أذكرك ونهارًا أُحارب بني جلدتك، كنتُ أفكر يا مانيسا كيف أستطيع أن أمرر النصف الآخر من وجهك، النصف الذي يشير إليهم، النصف الذي يوضح النصف الآخر من جذورك.

مانيسا، لم أكن أبيت في خيمتي، رعبٌ تملكني أن أدخلها ولا أجدكي بها، كأن الحياة بها انتهت عزيزتي، بداخلي شخص يتكلم باستمرار، يجعلني غير منصت لما يدور من حولي، يستمر بالحديث عنكِ، حتى أنه يعيد أحداث حييتها من دونكِ ثم يدسكِ بداخلها ، وفي كل لحظة يذكركِ، يتكلم بأمور غير واضحة فيزعجني، يشتت انتباهي ويجعلني غير قادر على التعامل مع مَن حولي، يهذي في حديثه ويبكي وقليل القليل يضحك فقط حين يذكركِ.

حتى أثناء نومي يتكلم، أريد أن أعزله عني، أريده أن يصمت ولو لبعض الوقت لأريح رأسي، لم ينتهي هذا الأمر إلى هذا الحد، بدأ مؤخرًا بالظهور لي، فبدأتُ أكتب، وبدأتُ أُفكر، فبدأ هو يهدأ، انتبهتُ أني لم أكن أفكر مطلقًا، أني أُحاول أن أتناسى كل أفعالي، وكلما وقف أمامي ما رأيته ولكني أسمع صوته برأسي، كان هذا هو أنا، ويهدأ حين أكتب إليكِ، أنتِ

أنتِ وحدكِ.

باستمرار كنتُ في محاولة للبحث عنكِ، أحاول البحث عن شيء يفتقدني وأفتقده، وعندما رأيتكِ وبالرغم أنكِ الفرحة التي انتظرتها إلا أنكِ لم تأتي كما تمنيت، لم تأتي الفرحة كما أخطط لها، لقد تمنيتُ يا مانيسا أن تأتين إليَّ تمشين على ساقين ولكنكِ أتيتِ بجناحين يطيران، اعتقدتُ أنني أريد شيئًا مختلفًا ولكنني لم أكن أعرف أن الاختلاف لا يناسبني.

لقد كان الأمر قاسيًا يا حبيبتي، في حين محاولاتي لإيقاف الصخب من حولي، وفي محاولاتي لتهدئة العالم ليعم السكون الذي أحببته، اكتشفتُ الأمر بعد أن رحلتي ،كنت اعتقد أن هذا الضجيج أنتِ مصدره، فوجدته ينبعثُ من داخلي، تراودني فكره الهروب مني، ولكن شيئًا مني يتمسك بي.

*****

الخامس والعشرون من تموز، الثلوج متراصة، طبقات جليدية فوق بعضها بعضًا، امتزاج بين المياه وبعضها، مع أنها نفس المادة إلى أن المناخ من حولها غيَّر منها، المياه مادة تُحافظ على كونها بالاختفاء أو التصلد حتى يستقر المناخ من حولها فإذا هي تسيل مرة أخرى.

يجلس مهاب وسط العاصفة الجليدية يرسم على الجليد بعصى بيده رموز ثم يمسحها، لم تكن رموز ذات معنى كانت مجرد نقوش ولكنني أزحت الوشاح الجلدي عن رأسي لأرى ولأتفحص ما يرسم، ظنوني المنبعثة شتتني كثيرًا يا مانيسا.

الثامن والعشرون من تموز، انتهت العاصفة و بدأت سرايانا بالتحرك لاستكشاف الأمور في الخارج ، الجنود نفوسهم شرهة للقتال، كأن القتال راق لهم، اصطففنا مرة أخرى للحرب، لاسترداد جميع الأراضي التي يسكنها الأشراس، لكي نمحو وجودهم، أن تقفي بالبيضاء تبارزين من فوقها، الجنود من خلفك، بداخل كلًا منهم عالما خلّفه ليلحق بنا، عالما يستحق أن يحي لأجله، أنظر إلى أعينهم وأرى بها عوالم أخرى، وبمجرد أن تغمض هذه العيون تنتهي كل هذه العوالم.

كل الساكنين والمحبين والعالقين، كل جندي يموت بها تنتهي الكثير من الحياة بإيراب، أتدركين كم أن الحروب ممقوتة، حتى حروب النفس التي لاتنتهي دون أن تُنهي شقًا رائعًا من الحياة بنا .

*****

الثامن من إب، التحام بين الجيوش، الدم تناثر كطفل يلعب برمال الشاطئ، يمسك بها ثم يقذفها في كل الاتجاهات، ضوضاء تعيشينها تنتج من حركات السيوف المتضادة والتي تسلك به الطريق وتتسلل إلى الداخل تبحث عن الجزء الذي ينهي ، يلي هذا الهدوء صرخة الموت.

سقوط والتحام وانسحام ثم انتصرنا، رُفعت رايات إيراب على أرض المعركة، أرض سيواء، أراد الجنود استكمال الحرب إلى أن أوقفتنا الرسالة البيضاء التي بُعِثت إلى مهاب:

تخفى مهاب حذرًا إلى عتمة، كنتُ أتبعه، على تواري جاءت الشرسية، أتت تنظر من ورائها أكثر من انشغالها بخطواتها إلى الأمام، وحين ظهر وجهها، بيضاء، عيناها واسعتين ملامحها مشوهة:

- طابت ليلتك أيها القائد.

- أي ليلى تقصدين، ليلتي التي أبيت فيها، أم ليلتي التي أعيش بيها

دست الرسالة إليه ثم رحلت، توارت في الظلام.

(هذه الرسالة البيضاء التي أبعثها لك في زمن الحرب الذي تعيشه أنت و أعيشه أنا، هذه الرسالة البيضاء التي أكتبها في حين أن كل الأشياء من حولي بلا لون أو طعم أو رائحة ، لقد نسيتني يا مهاب، نسيت ليلى، تريد أن تصل إلى القلعة السوداء أن تنتصر لنفسك، أنا أذكر كل ملتقى التقينا

به معًا وأعيش بهذه الذكرى، نحن نطفئ بقتالكم فهلا أوقفت جيشك، بحبك الذي تناشدني به دومًا، لا ترحل، ولكن ابق حذرًا بعتمة قد لا تشرق الشمس بعدك، و اذكرني

حبيبتك ليلى)

حين أغلق الرسالة، لمح ظلي الذي أظهره القمر، ثم اقترب على حذر ما استطعت الاختباء:

- يحيى.

- أتبعتك للاطمئنان فقط .

- إن قتالنا مهلك لهم.

قرأتُ الرسالة ثم سألته:

- أتعتقد أن ليلى من بعثت بها؟!

- إنها تكتب إليَّ عن كل الذين رحلوا، عن أسرانا هناك.

قاطعته:

- مهاب انظر، هي لم تطلب أن تحررها، لماذا تلومك على كل فعل لك،

اتماماتها متكرره، انظر

أشرتُ إلى نهاية الرسالة ـــ إلى حبيبتك ليلى ـــ

ثم أكملت :

- أي حب تحكي عنه، خرجت تحذر يونس، تاركة رسالة وداع الي مهاب.

أوقفني عن الحديث ورحل.

*****

فجر العاشر من إب، أوقف القتال، لم يوافق الجنود، التوا تحت الصمت متأففين غير راضين تحت لوائه.

منتصف العاشر من إب، جاءتني صربلاء تعاتبني بذنب لم أقترفه، على خطوات لم أخطها، على رمح لم أرم به، صدقيني يا مانيسا أنا فعلتُ الكثير ولكن لم أفعل هذه، وصلتُ إلى المرعي، اقتربتُ أتفحصها ،إنها الشرسية، رأيتها ملقاه على وجهها وسهمي بين أضلعها، انتزعته، إنه سهمي، كيف استقر السهم بين ضلعيها، اعتقد مهاب أني قُطعت الخيط الذي يوصله بليلي.

صوت ضحكاتها يتعالى وهي تدور تمسك بأناملها أطراف يده لتجعل جمعة يدهما مركز تدور من حوله، وتغلق عيناها عن الدنيا لما تدور حتى إذا تلاقا وجهيهما تنظرا إليه ظل ثابتًا وانفلتت من يده وهي تدور وتزيد من ضحكاتها، فيشير لها بيده أن تقترب فلا تبالي وكأنها لا تشعر أنها تقترب من الحافة.

ناداها : - ليلى احذري.

أغمضت عيناها وكأنها لا تسمعه وزاد اقترابها من حافة التل انطلق خلفها كان يضحك وقلبه يرتجف:

- ليلى احذري، ابتعدي عن الحافة.

زادت سرعة خطواته نحوها :

- ليلى ابتعدي عن الحافة.

ولكنها لم تكن تسمعه، رجل أمسك به عنها، فأفلتت قدمها وعند سقوطها أدركت أنها تهوى، سقطت وهي تنادي مهاب... تَستغيثه.

ثم فتح عينيه، حلم يُراوِدُه، اتجهتُ إليه وسألته:

- من كان الرجل الذي يمسك بك؟

أغمض عينيه وريَّت على كتفي وتركني وانطلق خارج خيمته.

العشرون من أب، جئتُ إلى خيمته مقيد، معصوب العينين دفعني مهاب فسقطتُ أرضًا، صوت مهاب دمر مسمعي حين اقترب مني، واستند على ركبتيه أمامي، أمسك برأسي واقترب بفاه من مسمعي:

- الرجل الذي أمسك بي، كان أنت يايحيى.

*****

ساعدني نضال في الهرب، خرجتُ متواريًا من الجنود، الحراس، نور القمر الذي قد يعكس ظلي، متواريًا من مهاب، كنتِ أنتِ الشهاب الوحيد بظلمة ليلي، والطريق المستوي، والاتجاه الواضح، كان الحق لكِ أن تأبين الأقتراب، و لكي كامل حبي في نفورك عني، كل سيئه نعاقب عليها، فأنا من علمكِ القسوة، وبالرغم الصفعة التي صُفعتُ بها، أنا لا أنسب لكي كل مسمى يشذ عنكِ، أنا من صنع الصفعة وآتى بالقسوة، انهيت أفكاري بصوتك لما أتيتُ إليكِ:

- حاولتُ دائمًا الاطمئنان عليك، حينما يئست الاطمئنان بك، وتناثر حبي السخي على الرمال، فلا سبيل لأن أرجعه ، كم تمنيت لنا الكثير من الحب والقليل من الآلم، لا في الحقيقه تمنيتُ الكثير من الحب وأن لا نتألم مطلقًا، كنتُ بلهاء، فحبي وحده لم يكن ليزهر بنا.

فالنحيل لا تلمس السماء يا يحيى إلا إن كانت على أرضٍ يابسة، وكنتُ أنا أرضًا طراء.

ثم نظرتي إليَّ معاتبة:

- ألم أكن في الجوار ألم أتبع الخطوة بخطوة وحين حلت الظلمة تفقدت نبض فؤادك واتبعته، فمن دفعني لأسقط في ذاك البئر؟! يبدو أن السماء أمطرت فأغرقت الأرض، ويبدوا أني عدوت فتجاوزت السباق وهمت بأرض لا أعرفها، ويبدوا أن روحي خرجت سعيدة في السماء حتى تاهت عني، فيبدو أن مشاعري الزائدة أفسدتك وأني أعدمت فيك الإحساس بي، أشفقتُ عليك أن تتحمل أخطاؤك، أشفقت عليك من أن تعاتب ذاتك، كل ترجي لي أحنى ظهر حبي لك، تفعل ما تفعل ثم تأتي إليَّ تشكو العالم وأنت الجلاد.

رحلتِ وابتعدتِ، في تلك الليلة نمتُ بعينين وكأنهما تبكيان منذ مئة عام.

*****

و أنا اليوم أحاول تمرير الذكريات التي لا تحويكِ، والأفكار التي لا تشير إليكِ وأقف وأتشبث بكل ماقد يشملك أو تظهرين بأي ركن من أركانه أو تشكلين جزءًا منه.

مانيسا، كان هذا أو ذاك لقد كتبتُ إليكِ كل ما حدث لعلك تتذكرين وإذ يشتعل الحنين لي عندك فلا تبالي به، كفي عني وعن أفعالي وخلافاتي التي جعلتك طرفًا بها، أتمنى لك كل صباح تحيينه كذاك الشعاع الأول الذي يصل إلى كوكبنا فيضيئه، ليخبرك أن هناك شروق آخر لكي بعد غروبي، ويكسر عتمة الليل التي أحاطت بكِ جرائي، لا ترحلي يا موطني فقد لا تشرق الشمس بعدك على برزخي، وحين تمري به أذكري يحيى الذي تُيم بك.

تذكري دائما يا مانيسا أن لكي جمالا لا قبح خلفه ونقاء لا يتخلله شائبة، الحياة تختار لكي أدوار صعبة لأنكِ قوة التي لا ضعف فيها وفي داخلكِ ضعف لا قوةِ فيه، حيث وُهِبتِ الصفات ومضادتها فكل صفة بك تكمن بها تناقضتها ومن هنا كان الإبداع في خلقك.

الرياح قد تكسر أغصان الأشجار لذلك لا تحزنِ حين تدق فيكِ الحياة أوتادها هي تريد أن تثبتكِ لا تنتزعك منكِ فإن تهتي عنكِ ستنتهين وتضيعين قبل أن يحين أجلك.

لا تتجنبي الصعاب كل الطرق بها عقبات وكل العقبات تؤدي إلى السقوط وكل السقوط مخزي ولكن احرصي أن لا ينكسر لكي عظما، ولا ينجرح لك ظفرا، فإن الكسر المجبور ليس كمن لا كسر به.

تثبتي في الأرض كالأشجار فإن ضاعت أوراقك لا ترحلِ، أحبك البشر والشرس والطيور والدواب، خلقتِ فاستظلوا بكِ فلاتبتئسي و إن طالت الشمس في وسط السماء.

تذكري أنك ستدفنين وحدك لا تختزني مشاعرك بل اغدقي بها من حولك لربما تنبت في مكان ما، خلقتي من الحب فلا تتلوثي بشيء من الكراهية، كتبتُ هذه الرساله لكي في زمن الحب والحرب، المحب لكِ والذي أحبك كثيرًا يحيى)

- لقد انتهيتُ يا صربلاء خذي برسالتي إلى مانيسا، واتركيني ببرزخي ولا تعودي إن لم تحملي ردًا منها، اتركي لي حلمًا انتظره ، أن تُرسل إليَّ ردًا يليق بها.

سكتُ في محاولة لأسترجاع اللحظات الأخيرة ، بدأت بالظهور لي أحداث مشوهة لم أستطع أن ألم بها.

تركتني في شرودي وذهبتِ، تركتني أفكر في أني بالحياة، لقد تمنيتُ فور موتي عدة ساعات، أو دقائق قليلة أصلح بها بعض الأمور ، جمل مبتوره لا أستطيع أن أجمع بينها:

ذهبت ريحانه وسوف تعود

كنت ثقبًا غير منير

لقد قُتل القائد النوردي

أنت حلمي الذي أتمنى أن يموت أو يضيع مبكرًا

الرجل الذي أمسك بي، لقد كان أنت

أردتُ أن أُسكت الجمل المتنافرة

ثم عادت صربلاء برسالة من مانيسا

(حدثني الساعي بداخلي بضراوة المعارك التي تدور، وأن الإنتصار فيها هزيمة، والشجاعة تمرد والقائد متخاذل، أيحارب الإنسان نفسه؟! أليس أولى أن يحارب من أجلها !

بداخلك معارك كثيرة لم تنتصر في أي منها، تمنيت أن تتحد بنفسك أولًا لتستطيع الاتحاد بمن حولك، كان عليك أن تعرف من أنت لتتعرف وتتفهم غيرك، حروبك الداخلية كانت أعظم من الحرب ضدهم ، عليك أن لا تشتت نور داخلك، فإن شتات النور لا ينير الدروب المظلمة.

مانيسا)

- صربلاء، أين أنا؟

- بجوار عتمة .

- ولماذا أنتِ هنا؟

- بالمنفى، نفاني مهاب، فعلها النوردي من قبل، آبى أن يصدق أنك قد تكون بكنتيور، رفض تصديق أن تذهب ولا تعود، الجميع يا يحيى يأبون التصديق بالنهايات، أن يكون الأحبة صفحات تطوى، أن الغد لن يجمع بينهم، النوردي أراد أن يمحي الحقيقة، أبعدني مع مهاب حتى لا يعيها، وها اليوم يسلك مهاب طريقه، حين أكدتُ له لا أحد حي بقلاعهم، وقد ماتت ليلى.

- كيف وصل سهمي إلى قلب الشرسية؟

- المنتصر قتلها، برمحك.

- سكتُ برهة، برهة واحدة أعادت الذاكرة ، خدعني المنتصر ، خطئي الذي ارتكبته أني آمنتُ لمن أراد أن يخن، لا شيء يدفعنا للخيانة بل الخيانة هي التي تدفعنا لفعل الأمور، إذًا الرمح الذي أخذه من يدي، ناولته الرمح بيدي ليصيد به.

سألتُ صربلاء:

- لو أننا ما بدأنا ما كنا لننتهي، فلماذا لا ننعطف عند البدايات حتى لا تدركنا ولا ندركها.

لأن النهايات يجب أن تكون منطقية ورائعة إن كانت مقرونة ببدايات صادقة، وإن لم تكن، فلم تأتي النهاية بعد.

أرسلت رسالة للمنتصر:

(إلى المنتصر

كيف كنتَ تترصد لي وأنا أغمض عيني وثوقًا بك بجواري.... وكيف قتلتني بخنجر استئمنتُ بوجوده معك، وما خطئي إذ كنتُ اتكأ عليك بمحني، كيف كان حالك يا صديقي وأنت تضحك وأنا أبكي..... يبدو أن الأمور تبدلت من حولي دون أن أشعر، كم أدركت الآن أن الأسلحة أضعف ما تقتل به إنسانًا وأن مشاعرنا قاتلة، وأن الدموع التي تنزل عن ألم حارقة تغير ملامحنا

وأما بعد)

*****

كل الذين تمنو أن لا يكونوا كانوا، وكل الذين أرادوا أن يكونوا ذهبوا، الثاني عشر من تشرين الأول، معركة ضارمة، بيننا.

بين مهاب وصربلاء ومواليهم ونضال بمواليه، كانت صربلاء الكثير من الجنود في الجيش يحبونها ويناصرونها، يحاربون تحت لوائها، يتحدون اليوم لقتال نضال ومن يوالونه، أي أن الجيش انقسم.

فكل النتائج التي أولنا إليها كانت مخزية لأن معاركنا كانت خاطئة، قُتلنا قبل أن نحارب أعدائنا، كان علينا أن ننتصر على أنفسنا أولًا، يبدو أن من مراسم الانتصار أن عليك أن تحدد عدوك أولًا قبل أن تحارب.

خرجتُ من برزخي الذي دفنتُ به نفسي أفكار ومشاعر قتلتني، خرجتُ بسيفي والبيضاء جوادي وكنتُ اسأل نفسي في الطريق، لمن اصطف في القتال إلى مهاب وصربلاء، أم إلى نضال والمنتصر، لا أستطيع أن أقف وقوف المتفرج لذا المنتصف لا يناسبني وكلا الجانبين سأهلك أن سرت بأحدهما؛ لذا غيرتُ مسار عودتي إلى القائد عثمان الذي انطلق معي فور أن قصصتُ بضع حكاية لم أكملها، انطلق وأمر أن يلحق الجيش به.

بمجرد أن وطأت قدمه أرض المعركة، توقف القتال، حتى أن صربلاء أمرت جنودها الاصطفاف للقائد عثمان، تجاوز نضال الصفوف مستقبلا أبيه:

- نضال ، لم أتمنى يومًا أن تكون محاربًا تقاتل بجيوش إيراب ولكنك ولدت بطلًا، لم تمسك بالسيف الخشبي كباقي الأولاد بل أمسكت بسيفك، حتى احتكاك قدمك بالرمال لم أكن اسمعه وكأن الرمال تتحد معك، أنت بطلي الشجاع ، كان فخرًا للجيش أن تقاتل به، لكن أن تكون بطلًا لا يلزم أن تكون قائدًا، ثم أمسك بيد نضال وناولته صربلاء قرن أستشعارها وأشار إلى مهاب جمع كفيهما عليها، جعلهم نسيج واحد لا بتر فيه.

*****

أتت مانيسا إليَّ ، اللقاء الأول الذي يجمع بيننا؛ بين مانيسا حبيبتي وبين يحيى، المرة الأولى التي أستطيع الجمع بين أفكاري ويلتئم شتات قلبي، إنه انتصار أن يتحد قلبك وعقلك على قرار واحد.

- مانيسا، سأذهب مع الجيش إلى القلعة السوداء.

- تقصد قلعة الشر الأسود التي بُنيت لا باب لها، لنقذف بداخلها، فلا أمل لنا للنجاة.

- أتقصدين الأشراس.

- يحيى، كفَّ عن أن تطلق عليهم أشراس، إنهم بشر قد يكونوا بوجوه أكثر جمالًا من الوجوه التي اعتدت رؤيتها، وقد تكون أقل جمالًا منها بالنسبة لك، أنت فقط، أيكون عدلًا أن تصف من لا تألفه أشراس؟! لا تكره استقامة أحدٌ ما، فاستقامته لن تحجب أشعة الشمس عنك.

- مانيسا، لماذا غادرتيهم؟

- خرجتُ من الوطن الذي ولدتُ به لأني أحمل نصف كنصفكم، لم أكن الطفلة التي يرحب بها، أظهرتُ الاتحاد، التقيتُ جيشنا وأنا متوارية كان عائدًا من عتمة يحملون أسيرًا ليلقى به في القلعة السوداء، تتبعتك حين أنفلت الجواد الذي كان يحملك ليهرب بك في أرض بعيدة. التي أفلتت الجواد أخبرتني أن أثق بك، وأن هذا لم يكن اللقاء الأول بينكما، لقد تركتها حين كانت عزلاء مصابة، لم تقتلها حتى أنك لم تأسرها ، واتبعت أنا خطواتك، تهتُ عني مدة كبيرة حتى التقيتك، كانت عيناك خائفتين يا يحيى، خرجتُ إلى إيراب أحمل برسالة إلى النوردي، حين قالت أمي أن النجاة بثقب أبيض وسط الظلام أخبرني أبي أن القائد النوردي قد يكون هذا الثقب المضيئ ، ذهبتُ إلى النوردي بنصف الرسالة لتكتمل الرسالة.

إلى الأشقر

قائدها البشري، البشر الذين أساءوا إلينا كثيرًا

له فورًا في مهده، لقد حاولنا فعل ذلك

الكره بينهم، إن لم نستطع قتالهم، اجعلهم يقتلون بعضهم

الأشقر أراد أن يشعل فتنة وأن يجعل كلًا يحارب بعضًا ليسقطوا جميعًا وليبدأ عهدًا جديدًا يكون هو حاكمه، الأسطورة التي تقولها مانيسا تزيد بحرف

اتحاد غريبان وانفراط معقود وثأر محب لن تسقط إيراب على إثرهن

الأحرف المتساقطة والكلمات التي لم تذكر، الجمل غير الكاملة، شتتنا وأفقد تنا الكثير من موازنة الأمور، لأننا لا يمكننا المشي على ضوء الشهب السريعة التي تظهر في السماء وتختفي، إذا أردت أن تُهزم دون أن تقاتل فاعتقد بالمفاهيم الخاطئة.

*****

السابع والعشرين من تشرين الأول، أُعدَّ جيشًا قويًا للفتك بالأشراس، وكنتُ أنا قائد الجناح الأيمن به، اقتحمنا بلاد الأشراس، دمرنا قلاعهم، البعض منهم تصدى لنا، ليفسح الوقت للآخرين للهرب، عاهدتُ مانيسا أن لا أقتل منهم أحدًا وأن أتصدى لمن يُبارزني دون أن أُصيبه، بكى طفل بمهده، شرسية بجانبه ملقاه، قُتلتْ، انطلقتُ أمام الزاهيدي أن لا تصبه، ثم رفعتُ صوتي:

- أوقفوا القتال، بشرًا مثلنا، رفعتُ لواء سلام بيننا، يقول القائد عثمان أن تكون بطلًا لا يلزم أن تقتل، كونوا أبطالًا بكف الدماء، انظروا من تقتلوا، ضعفاء رغم قدراتهم، لا ترفعوا سيوفكم على الضعفاء والعزل.

- كفَّ البعض عنهم، والبعض استمر في القتال، إلى أن تمكن الفهم من مهاب وأوقف الحرب .

عُقد اتفاق، ألا نقاتل بعضنا، وأن لا نبغي على الضعفاء فينا، وضعاف الحيل، والمنغلبين على أمرهم، وأن لا نتسيد بعضنا، الحقوق متساوية بيننا لا تُمنح ولا تُشترى، عودتُ بمانيسا إلى سرحة، حيث أم القاضي وصفية ونضال ، حيث قبر ريحانة.

لكني لم أؤرخ هذه الرواية لنتجاوز عثرات الآخرين، أو لتكملة مسارهم، التاريخ لا يروي ما حدث لأجل السير على نهج أحد ما، فالتاريخ يكتب بيد المؤرخ من خلال رؤيته لما حدث... رؤيته فقط دون ملامسته عقول وقلوب المروي عنهم، ذكرياتهم، أسرارهم الخفية التي دفنت معهم.

من المستحيل أن يحبو الطفل ثم يركض مباشرة، لا بد من الوقوف أولًا، علينا أن نصعد الدرج درجة بدرجة حتى لا نصل إلى النهاية ومازلنا على الأرض.

علينا أن نقيم الحياة بكل تفاصيلها، علينا أن نخوض الحياة بكل صغائرها لأجل أن نقتنع بالنتائج التي أولنا إليها، ولا يجب علينا أن نخاف من العواقب التي أصابت أجدادنا، قد يكون نفس السبيل الذي نسير عليه ولكن وجهتهم كانت تختلف، التاريخ لأجل اكتساب الخبرات ممن سبقنا.

*****

بناء مخالف للقواعد النيتروجية وطفرات للجينات التي تحملها الكروموسومات، أي اختلاف في بضع كروسمات أدى إلى اختلاف في الشكل، حين بدأوا بالظهور، لم يستطع أحدًا تقبل اختلافهم، وقد يكون الخوف من أن يصابوا بشيئًا منهم، لذلك بُنيت القلعة السوداء ليُحبسوا بها، كانت الفكرة التي استطاع صالح ـ والد بارع ـ تنفيذها، قَتلوا بارع بعد أن قتل صالح الكثير منهم، بعد مقتل بارع والدته أحرقت الدار واحترقت بداخله .

جهز صالح أول جيش بعتمة لقتال الأشراس ، القلعة السوداء التي بُنيت بدون أبواب ليُحبسوا بها، كانت قلعة شرنا الأسود التي قُتل الكثير منَّا بها، نحن ننكر الاختلاف في العرق واللون والشكل ، نحن من نصنع الأعداء لأنفسنا، لا نتقبل الاختلاف، في الاختلاف عداء نخلقه، نخافه، نجهل كيفية إدارته، فننسحب إلى الخلف معادين الأمام، نحارب الأمور التي لا ندركها والتي لا نفهمها، كل قبح به جمال وكل جميل يستر قبحًا، ألا تدرك أنك لا تُلاحظ إلا القبح الواضح والمسستتر

إن كان لديك طوفان فليكن طوفان من الحب، الرحمة، فهذا النوع من الطوفان لا يهلك، بل يثمر و يزهر أينما طاف.

عليك أن لا تستمر في مقاضاة نفسك على الأخطاء التي ارتكبتها، أن لا تتمسك بالأشياء التي ذهبت وولت، أن لا تيئس لأن كل الطرق التي سلكتها كانت خاطئة، إنه البرزخ الذي ستسقط بداخله، برزخٌ لن تدفن فيه ستحيى به، إنه برزخ الحياة، بعدم فهمنا للكثير من الأمور تبعث بنا إلى معارك خفيه مع البعض، معارك لا انتصار فيها.

إنها ذكرى يحيى النوردي، فربما تنتهي منها بشروق شمس يوم جديد، فصباح الخير للمستيقظين على أحلامهم والمستبشرين والمتفائلين، وصباح الخير للمحبين والعابرين على القلوب تاركي زهور مشرقة، وصباح الخير للمستيقظين وبحلوقهم غصة من مرارة الأمس، صباح الخير للعاجزين عن الحب والمهجورة قلوبهم، صباح الخير للمحبين والمتمسكين بحلمهم تمنوا واحلموا، ما زال في السماء خيرٌ يمطر لتنبت أحلامكم.

يقال أن الرحمة هي الشق الجميل من الجمال

من ذكرى يحيى النوردي

للتواصل مع الكاتبة

الكاتبة يمني حسني - yumna -hosni

yumna -hosni